Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سير شارلز ويلسون

لوحات من القرن التاسع عشر

لبنان - فلسطين - سيناء

١٥٠ لوحة/وثيقة مع نص مونوغرافي متميّز

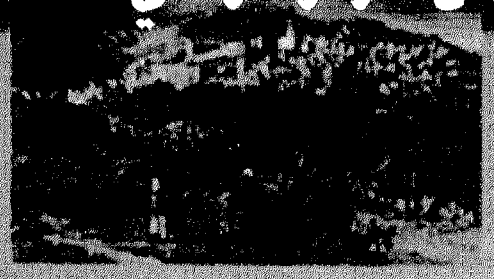

Bibliotheca Alexandrina
0050134

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوحـــات
من القرن التاسع عشر

حرره وأعده
سير شارلز ويلسون

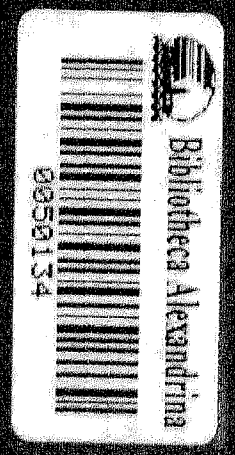

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصميم الغلاف : جوماثا ابو شقرا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوحات
من القرن التاسع عشر
لبنان، فلسطين وسيناء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوحات
من القرن التاسع عشر
لبنان، فلسطين وسيناء

١٥٠ لوحة /وثيقة مع نص مونوغرافي متميز

حررّه وأعدّه
سير شارلز ويلسون

ترجمة
د. محمد شيا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شركة المطبوعات

للتوزيع والنشر

بناية الوهاد . شارع جان . دارك
ص.ب. ٨٣٧٥
بيروت . لبنان

هاتف: ٣٤٤٢٣٦ - ٣٤٥٤٦٠ / ٢ - ٣٥٠٧٢١
فاكس: ٠٧٥٢٢١ - ٩ - ٣٥٧ / ٦٠٢٠٢٩ - ٩٦١١
تلكس: ٢٢٦٦١

الطبعة الاولى ١٩٩٥ م

الاخراج الفني: منى التالى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

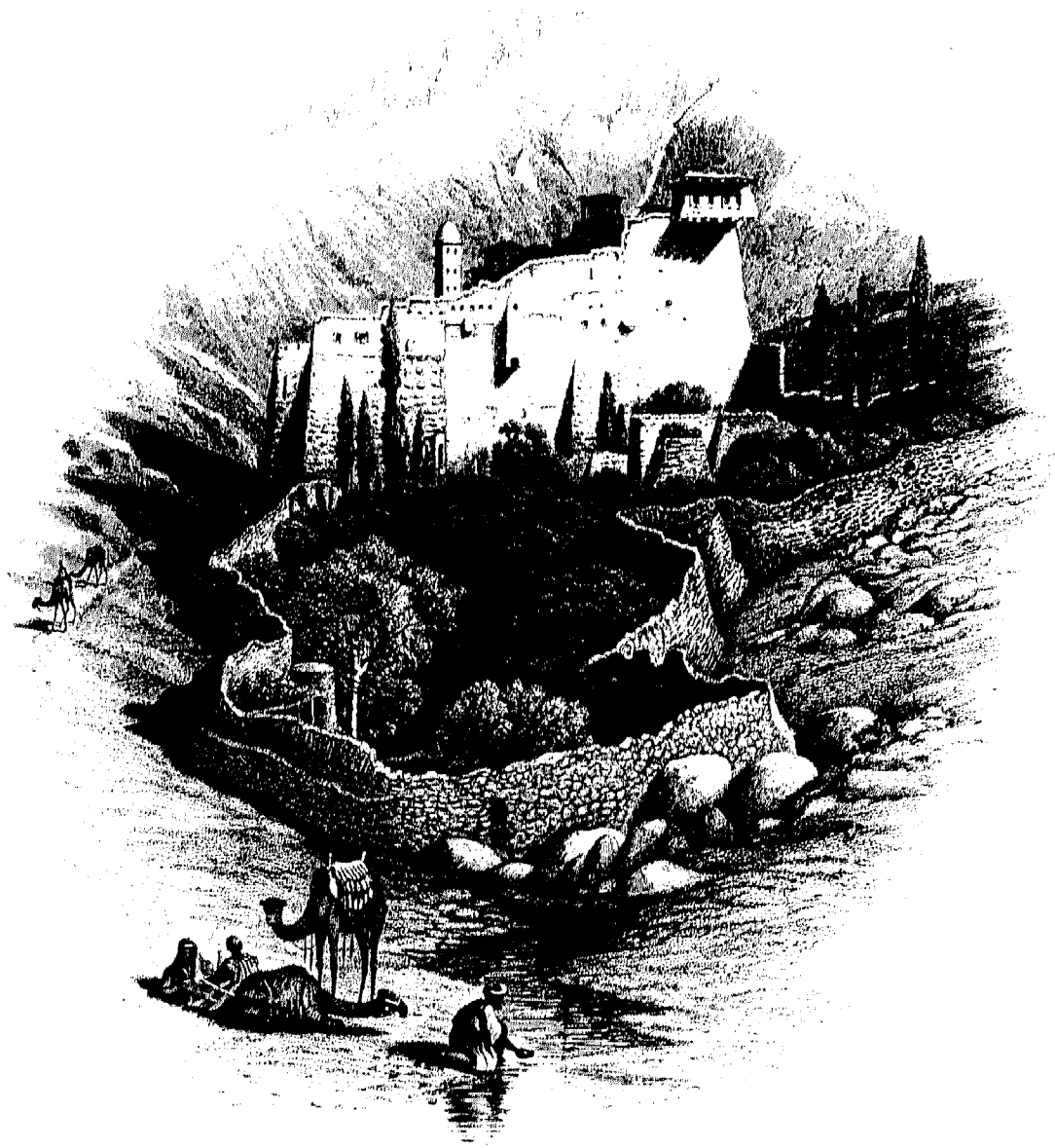

دير سانت كاترينا في جبل سيناء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خارطة فلسطين

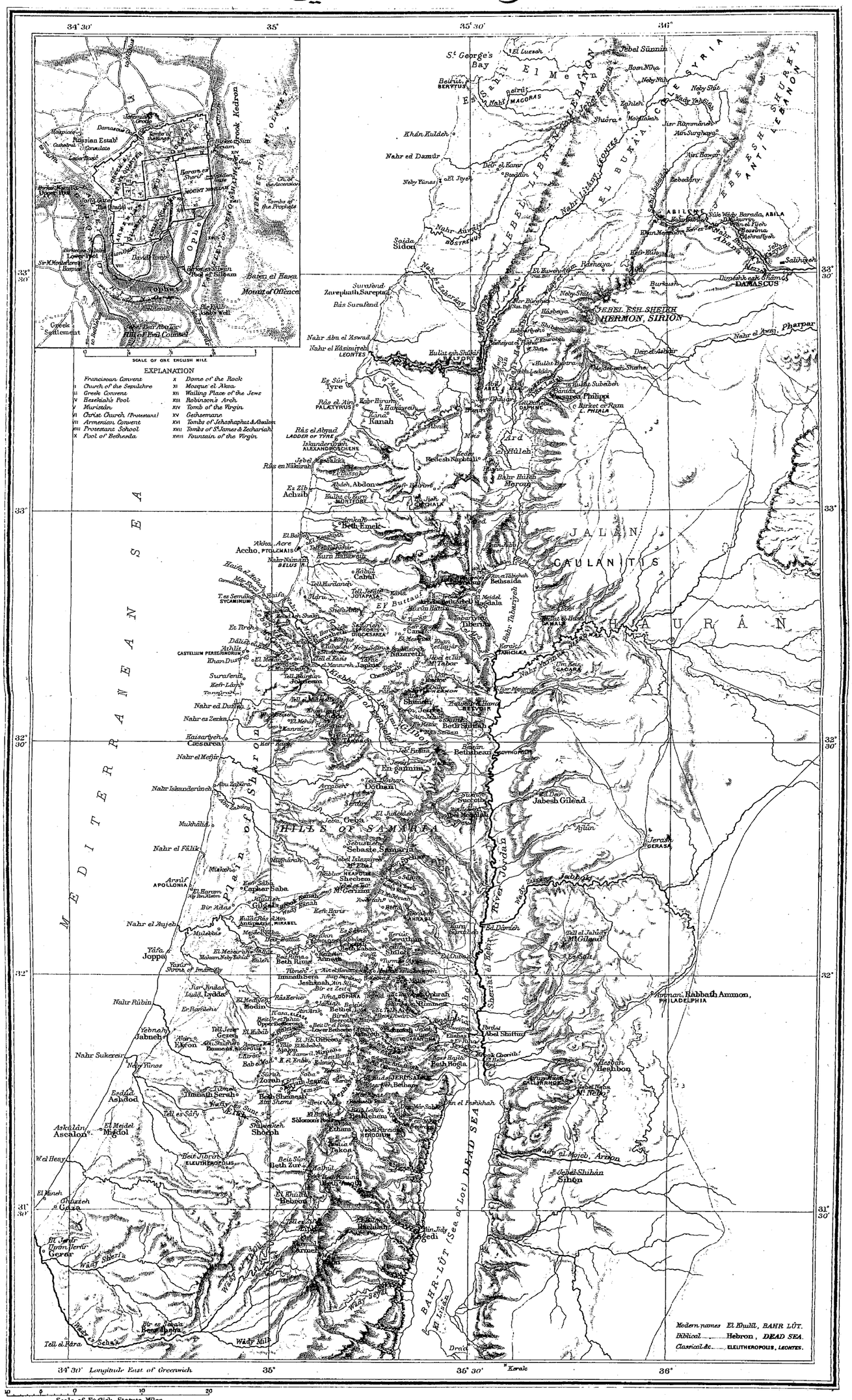
34° 30'
35°
35° 30'
36°
33° 30'
33°
32° 30'
32°
31° 30'
31°
Jerusalem
Bethlehem
Hebron
Jericho
Mount of Olives
Mount Moriah
Tomb of the Virgin
Gethsemane
Tomb of the Prophets
Greek Convent
Mount of Offence
Pool of Siloam
Hill of Evil Counsel
Russian Estab.
Hospice
Damascus Gate
Herod's Gate
St Stephen's Gate
Jaffa Gate
Zion Gate
Dung Gate
Golden Gate
Ch. of Ascension
Tombs of the Kings
Tombs of the Judges
Tombs of the Prophets
Pool of Hezekiah
Pool of Gihon
Upper Pool
Lower Pool
Pool of Bethesda
Birket Israil
Birket Mamilla
Birket es Sultan
Aceldama
Valley of Hinnom
Brook Kedron
Valley of Jehoshaphat
Valley of Gihon
Valley of Rephaim
Valley of Tyropoeon
Valley of Kidron
Valley of Hinnom

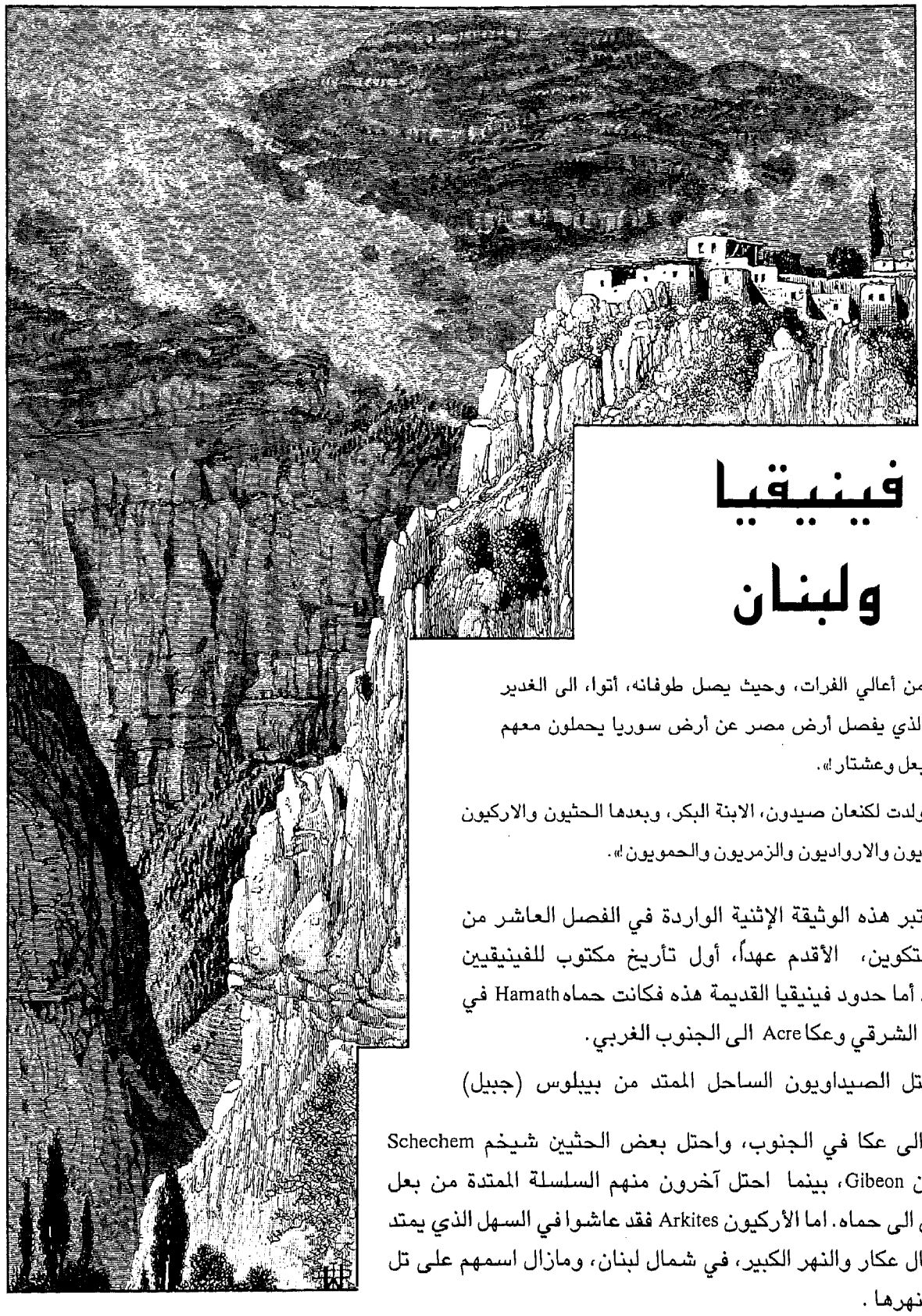

فينيقيا ولبنان

من أعالي الفرات، وحيث يصل طوفانه، أتوا، الى الغدير الذي يفصل أرض مصر عن أرض سوريا يحملون معهم بعل وعشتار!».

«وولدت لكنعان صيدون، الابنة البكر، وبعدها الحثيون والاركيون والسينويون والاروراديون والزمريون والحمويون!».

تعتبر هذه الوثيقة الإثنية الواردة في الفصل العاشر من سفر التكوين، الأقدم عهداً، أول تأريخ مكتوب للفينيقيين الأوائل. أما حدود فينيقيا القديمة هذه فكانت حماهHamath في الشمال الشرقي وعكاAcre الى الجنوب الغربي.

احتل الصيداويون الساحل الممتد من بيبلوس (جبيل) شمالاً الى عكا في الجنوب، واحتل بعض الحثيين شيخم Schechem وجيبون Gibeon، بينما احتل آخرون منهم السلسلة الممتدة من بعل حرمون الى حماه. اما الأركيون Arkites فقد عاشوا في السهل الذي يمتد بين جبال عكار والنهر الكبير، في شمال لبنان، ومازال اسمهم على تل عرقة ونهرها .

والى الشمال من ذلك، فان أحد أهم المواقع الأثرية في شمال سوريا هي «قلعة قدموس»، على مسير اثنتي عشرة ساعة جنوب شرق اللاذقية، والتي ربما كانت الموطن الاصلي لقدموس الذي أدخل الحرف، لأول مرة الى أثينا... هوذا الحد الشمالي لرحلتنا في بلاد فينيقيا.

حصرون، قرية مارونية في شمال لبنان، على قمة صخر عالٍ في الجانب الجنوبي من وادي قاديشا (النهر المقدس) وادي قاديشا (النهر المقدس)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكي نتمكن من انجاز رحلتنا العتيدة هذه، كان لا بد من أن نبدأ من أقصى الشمال ثم نتجه جنوباً، وفي رفقة الأب س. غصوب من طرابلس، والبروفسور دودج Dodge من الكلية [الأميركية] في بيروت . وكانت البداية في آثار العمارة الفينيقية القديمة في شمال سوريا المسماة «حصن سليمان»والتي لم تكتشف معالمها الا حديثاً. وقبل ذلك كنا قد قضينا ليل الثلاثاء في مهاردي Mahardee بالقرب من قلعة سيجار Sigar على العاصي (Orontos)، شمالي غرب حماه؛ ثم انطلقنا صباح الاربعاء نحو الجنوب الغربي لنبلغ محيط جبل النصيرية، وتسلقنا بعد ذلك منحدراً صخرياً حاداً يرتفع بضع مئات من الاقدام، وسط غابات من شجر السنديان وصولاً الى القمة قرب المنطقة التي تدعى «عين شمس»، وانحدرنا بعد ذلك غرباً في وادٍ ضيق نحو «عين الذهب» ثم انحرفنا جنوبا فوق هضبة مستديرة عالية، لنصبح بعدها مباشرة أمام واد أخضر منعزل تقوم في وسطه تماماً آثار«حصن سليمان». تبدو اثار الحصن، الذي لا يعرف مصدره أو تاريخه على وجه الدقة، موغلة في القدم فهو يحتوي، كما قلعة بعلبك، على ثلاثة انواع من العمارة: الفينيقية الضخمة واليونانية والصليبية. وأول ما يلفت النظر في آثار الحصن قاعتان فسيحتان مربعتا الزوايا قريبتان الواحدة من الأخرى ولكن غير متصلتين. تمتد القاعة الجنوبية، وهي الاوسع، على شكل مستطيل كبير في ٤٥٠ قدماً طولاً و٢٨٠قدماً عرضاً مع حائط علوه الأصلي حوالى ٤٠ قدماً. وفي وسط كل جانب من جوانب القاعة بوابة ضخمة في عرض ١٠ اقدام وفي ارتفاع يبلغ ٢٠ قدماً وبسماكة ٨ اقدام. وفوق قنطرتي البوابتين الشرقية والغربية يقوم تمثال لنسر هائل بين مخالبه صولجان، ويحفّ به من الجانبين ساقيا خمر يونانيان. تشبه آثار الحصن آثار بعلبك ولكن دونها بكثير فخامة ودقة وزخرفة. امضينا في« حصن سليمان» حوالى ست ساعات في نقل تصاميم تلك الآثار لصالح جمعية الآثار الأميركية الفلسطينية APES، وكانت هذه التصاميم والتخطيطات أولى الصور التي تنشر في أوروبا وأمريكا لتلك الآثار. فوق البوابة الشرقية عتبة ضخمة بطول ٢١ قدماً وعرض ١٠ اقدام وارتفاع ٥ أقدام، يبرز منها إفريز تزخرفه منمنمات وزهور منحوتة بينما مجسم رأس الملك يتوسطها جميعها. وعلى كل طرف تمثال شخص مجنح، نافر وعالٍ وتتكسر ثنيات رداء يبدأ من الخصر نزولاً، ويسند الجزء العلوي من الافريز بكتفه والساعدان الى فوق، وعلى أسفل الافريز كتابة منقوشة باليونانية تقول ما معناه: «هو ملك ثيوباتيوس، بناه عماله وخدمه في سنة ٦٨ الثانية». أما افريز البوابة الغربية فيحتوي على منحوتات وازهار ومنمنمات ووجوه بارزة أو نافرة. والعتبات تلك هي في حالة انشطار أو انهيار، ولم تسلم غير عتبة البوابة الشرقية التي بقيت في حالة كاملة، بينما انشطرت عتبة البوابة الغربية الى شطرين والشمالية الى ثلاثة، وانهارت الجنوبية تماماً. وداخل البوابة الشمالية وعلى لوح ارتفاعه ٦ أقدام وعرضه ٣ اقدام كتابات يونانية ولاتينية ويفيد النص اللاتيني، كما ترجمه د. ووردWard، ان الأمبراطور ڤاليريانوس وابنه غاليانوس وحفيده سالونيانوس قد اعتمدوا اركسوس واوريلوس (وآخرين) على مقاطعات آسيا وأمروهم بالقضاء على تمرد باريثانوس في المقاطعات البعيدة. وتاريخ الكتابة هو بين ٢٥٣ و ٢٥٩ م. الا ان تاريخ الكتابة يبدو متأخراً الى حد كبير عن تاريخ البناء نفسه، ولعله مقتلع من مكان آخر، اذ ان كتابة أخرى عليه تبدو ممحية.

يقوم الحصن على شكل مستطيل مبني من حجارة ضخمة يقوم أضخمها في الركن الشمالي الشرقي في طول يبلغ ٣٠ قدماً، وارتفاع ٩ اقدام و٩ انشات، وعرض ٤ اقدام وسبع انشات وتعلو عن الأرض من جانبها الداخلي ٣٠ قدماً. ومعظم الحجارة متساوية الطول الا أن بعضها اكثر سماكة من بعضها الآخر، كما أن بعضها أقصر وأعرض من البعض الآخر. أما الحجارة الواقعة في الجانب الجنوبي فعريضة، خشنة، وتبدو غير منتهية الصنع، اذ ان أثار النحت بادية على سطوح بعضها.

أما المحجرُ Quarry فعلى منحدر الهضبة على مسافة بضع قصبات* عند الزاوية الشمالية الشرقية، وفوق هذه الزاوية منحوتة أسد بدائية بارزة فوق الجانب الشمالي. وفي الزاوية الشمالية الغربية المقابلة منحوتة أسد يستريح تحت شجرة سرو. والنمط البدائي هذا غير الدقيق أو المتقن من منحوتات الأسد ما زال الى اليوم يزين مداخل المنازل السورية الحجرية، بل تستعمله النساء العربيات في زخرفة الحيطان الطينية الداخلية لمنازلهن البدائية. وعلى الجانبين

* وحدة قياس قديمة تساوي ٥,٢٩ متراً [م].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الداخلي والخارجي من البوابة الشمالية مشكاة فارغة تظللها سعفة عالية. وعلى الجانب الداخلي من حائط القاعة آثار رواق كان يمتد باتساع ٤٥ قدماً وعمق ١٧ قدماً، سقفه واعمدته متداعية ومعظمها مطمور تحت الركام. وتعود قواعد الأعمدة على الجدران الاساسية الى النمط الكورنثي الأول.

وفي الجزء الجنوبي الأوسط من المستطيل يقوم الهيكل الأيوني Ionic في ٧٥× ٤٥ قدماً. وإلى جانب منه مجموعتا أدراج في عرض واجهة الهيكل وبطول ٦٠ قدماً شمالاً. وبُني الهيكل من الصخر الكلسي نفسه الذي بنيت منه القاعة، إلا أن حجارته أصغر حجماً بكثير وهي تتدرج من ٦ الى ١٠ اقدام طولاً ومن ٣ الى ٤ أقدام عرضاً وارتفاعاً، وهو محاط بأعمدة نصفية تصبح في الزوايا أعمدة ثلاثية أو رباعية، أربعة منها في طرف الهيكل الجنوبي وخمسة على كل جانب، وجميعها على ٣ اقدام و ٥ انشات في قطرها و ٢٧ قدماً إرتفاعاً. وإلى الداخل بقايا صفوف غير منتظمة من الأعمدة النصفية. كما تجري شتاءً عين ماء من تحت الهيكل، وهي كانت كما في نبع فيجي او أفقا كما يبدو، مراكز جذب متصلة بعبادات تلك الأيام والتي ما زالت تفاصيلها سراً مغلقاً. ومياه العين تلك باردة صافية، سلسة، تنبع من تحت الحائط الغربي من السور، اما منبعها الأصلي فغير ظاهر ومطمور تحت الركام.

والآثار الشمالية من الحصن مستطيلة كذلك، تقع الى الشمال الغربي من القاعة الكبرى لتشكل زاوية معها. وهي تضم مجموعة معابد صغيرة، واحد على الزاوية الشمالية الشرقية، وواحد على الزاوية الجنوبية الغربية، وآخر خارج الحائط الغربي قياسه ٤٥×١٥ قدماً. ووراء الساحة عند الزاوية الجنوبية الغربية قواعد أعمدة كثيرة كانت، ربما، تحيط بالمعبد ويمتد فوقها رواق طويل. وللمعبد الصغير في الزاوية الجنوبية الشرقية رواق يرتفع ١٠ اقدام وقياسه ٢٦ × ١٣قدماً، مع ردهة مساحتها ٢٦×٤٠ قدماً. والبوابة بينهما، وهي ركام الآن، عرضها ٧ أقدام وارتفاعها ١٠ أقدام، بينما تمتد العتبة التي فوقها ١٣ قدماً طولاً وعليها محفورات ومنحوتات غير مكتملة لزخرفات وأزهار شبيهة بتلك التي على بوابتي القاعة الكبرى مع حمامة باسطة جناحيها. والحجر الذي غلى العتبة هو في ١٥ قدماً طولاً أما الحجارة فمرصوفة، من دون مؤونة وتتصل بشكل جميل وعلى نحو يشبه نمط بعلبك وبالميرا Palmira (تدمر). والبناء الوحيد الذي جرى استخدام المؤونة في رصف حجارته هو الكنيسة الصليبية على الجانب الشرقي وبخاصة في الجزء الناتئ منها صوب الشمال الشرقي. لكن اللافت هنا هو أن أي إسقاط Projection نصف دائري لتخطيط الحائط الشمالي يؤشر مباشرة الى نتوء سابق في صرح أكثر ضخامة كان قائماً في المكان نفسه.

وتبقى طبيعة الموقع الأثري برمته سراً من الأسرار إلا أنه يتضح أنه كان أحد أماكن Arvadites المقدسة، كما كان حصناً في الآن نفسه. وفي تقريره حول بقايا العمارة الصليبية العسكرية في سوريا يصنف مسيو راي، من باريس، هذا الموقع باعتباره الأكثر أهمية في سوريا. ويشير اسمه الشائع «حصن سليمان» الى أصله، ربما، وحسب ما هو سائد من الروايات. فلقد نسب العرب بناء هياكل بعلبك، وتدمر/بالميرا الى عمل سليمان، بمساعدة الجن،.وهو ما ينطبق وفق الروايات على هذا الموقع الفينيقي وربما كان قريباً من المنطق الافتراض ان سليمان وقد بلغ حماه Hamath Zoba قد رغب ببناء أماكن أو مراكز لخزن الحنطة في المنطقة فأمر عماله ببناء هذا الحصن ولفظة حماه Hamath تعني الحصن ـ وشهرة سليمان طبقت مناطق حكمه بأسرها قبل ان يسكنها الفينيقيون والحثيون ـ ولعله جرى اختيار هذه البقعة النائية مكاناً لبناء موقع قوي حصين تخزن فيه الحبوب لسكان شمال سوريا، بالاضافة الى وظيفته كحصن عسكري. اما المعابد الصغيرة فيبدو أنها أضيفت في أزمنة لاحقة.

بعد مغادرتنا الوادي الجميل هذا، قصدنا «برج صافيتا»، أو القلعة البيضاء، التي بناها الصليبيون والتي تشغلها الان كنيسة انجيلية ومدارس. وتشبه القلعه، كما يوحي اسمها، بقعة بيضاء على صفحة جبل قاتم اللون. وفي الاول من حزيران، انحدرنا نزولاً لحوالى ست ساعات عبر الهضاب الطبشورية نحو الساحل ولنصل مباشرة الى مدينة طرطوس الحديثة، التي تقوم اليوم مكان انتارادوس Antaradous الفينيقية القديمة. تضم البلدة اليوم حوالى ١٥٠٠ ساكن، أربعة أخماسهم مسلمون والباقون ارثوذكس. وتعيش غالبية السكان داخل جدران القلعة، وهي مبنى حصين حيث الأسوار والأبراج التي بناها الصليبيون لاتزال في حالة ممتازة. وتحاذي القلعة الشاطئ، يحميها من مدّ البحر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعمدة وحيطان ضخمة تتدرج صعداً . أما لجهة البر فهي محاطة بحائطين يتخللهما خندقان، واحد من الداخل وآخر من الخارج. ولايزال معظم هذه التحصينات في حالة حسنة وبخاصة في الجهة الشمالية الشرقية، وتبدو العمارة القديمة هذه جميلة وقوية خصوصاً اذا ما قورنت بهزال معظم الإضافات الأحدث عهداً.

واستقلينا من طرطوس مركباً شراعياً، او «الشختورة» العربية عبرنا بها مسافة الميلين ونصف الميل نحو الجزيرة القديمة أرواد، توأم طرطوس. يزيد محيط الجزيرة عن ثلاثة أرباع الميل ويقطنها حوالى ألف ساكن وكانت الجزيرة، في ما مضى، محاطة بسور يمتد حولها من حافة الماء، يحميها من البحر من جهة ويصلح حصناً عسكرياً من جهة ثانية ولا تزال بعض بقايا ذلك الجدار قائمة. وهي تتألف من حجارة صخرية قد يبلغ بعضها الخمسة عشر او العشرين قدماً طولاً. وشكل هذه الحجارة الضخمة غير المصقولة يشير الى أصلها الفينيقي. اما داخل الجزيرة فقد حفرت خزانات في الصخر بهدف حفظ المياة لسكان الجزيرة؛ كما أن في بعض صخور الجزيرة نقوش يونانية تبدأ بكلمات: «الشيخ Senate والسكان ...». يقع مرفأ الجزيرة في الجهة الشمالية الشرقية ويحميه من أمواج البحر حاجزان مكونان من حجارة ضخمة جلبت من مقالع في عمريت Amrit ومعظم سكان الجزيرة اليوم صيادون تحمل مراكبهم السمك الى اللاذقية وطرابلس، وربما بلغت كذلك بيروت. كما قد تشحن الخشب من سفوح الجبال المجاورة الى مدن فينيقيا الجنوبية. تحالفت أرواد مع صيدون لكنها احتفظت بملكها الخاص يمثل التاج الفينيقي فيها. وبحارة هذه الجزيرة شجعان، قساة، وقد نافسوا الصوريين والصيداويين في التوغل في المتوسط والبحار السود. ويعود للبحارة هؤلاء فضل بناء المدينتين المقابلتين على الشاطئ انترادوس (او طرطوس الآن) وماراتوس (أو عمريت) حيث نجد فيها بقايا العمارة الفينيقية في ابهى صورها وأكثرها أهمية. والرحلة من طرطوس الى أرواد هينة ممتعة صيفاً كما في معظم أيام الربيع، الا أنها ورغم مهارة بحارة أرواد أكثر صعوبة وقسوة في باقي شهور السنة.

ومن طرطوس وبمحاذاة الشاطئ نحو عين الحيّة وعمريت وكان موسم الحصاد على الأبواب والبلاد بأسرها في حلة ذهبية قشيبة، حيث الهضاب تموج بالسنابل، والثيران بدأت تدور وتدور على البيادر المستديرة الشكل تدرس أكوام الحنطة وتفصل الحب عن القشور. والى الجنوب الشرقي من طرطوس تقوم كاتدرائية الصليبيين وهو مبنى جميل يقع في ١٣٠×٩٣ قدماً ويفصل الصحن عن سائر الكنيسة صفان من الأعمدة المتقاربة. والكاتدرائية الآن وكما الحال في سائر المدن السورية، في تصرف المسلمين، وقد شاهدنا فيها شيخاً مسلماً يعلمّ اطفالاً صغاراً قراءة القرآن، وقد افترشوا جميعاً حصيرة بسيطة. ورغم ان البناء هو جزئياً من دون سقف، الا انه لم يتداع؛ والمنظر محزن ولافت لكنه شائع ومألوف في المنطقة الواقعة بين حلب وطرابلس. فمعظم القلاع والابنية التي شادها الصليبيون، وبخاصة الفرنسيين والانجليز، بكنائسها القوطية وجدرانها العالية هي اليوم اما حطام وحظائر، او أمكنة لاستخدام عمال الاترال وموظفيهم وخدمهم.

وبعيد تركنا كاتدرائية طرطوس بلغنا بعد مسيرة ساعة أو يكاد، آثار عمريت Amrit ، والتي اكتشفها م. رينان Renan وأبان تفاصيلها وجمالاتها بكثير من العمق والتعاطف في عمله المنشور تحت عنوان "Mission de phoenice" . واثار عمريت (أوتل عمارة) أخاذة ولافته، وهي أكثر بقايا العمارة الفينيقية في سوريا كمالاً تنتصب في ثلاثة تماثيل شامخة ضخمة، أولها على قاعدة مساحتها ١٦ قدماً وتعلو ١٦ قدماً مع اسود منحوتة على الزوايا، وترتفع فوقها مسلّة الى ١٤ قدماً. والثاني على قاعدة مساحتها ١٥ قدماً وارتفاعها ١٠ أقدام، تقف عليها منحوتة حجرية اسطوانية الشكل ضخمة، وجميعها محاط بصخرة مخروطية الشكل يبلغ أقصى علو لها ٣٣ قدماً وتحت كل واحد منها غرف محفورة في الصخر، تتفرع الى غريفات صغيرة مساحة كل منها ٢/١ ٨×٤/١ ٣ قدماً. أما النصب الثالث فمدمر. وحسب لينورمانت Lenormant فإن الأنصاب المخروطية تحمل معاني معينة في عبادات البعل القديمة. « ففي بافوس Paphos الحجر يمثل عشتار* هو مخروطي الشكل، وكذا في مالطة، في أحد المواقع الفينيقية،«قدس المقدس» النصف

---

* اله الخصب عند الفينيقين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدائرية، جيجانتيجا Gigantega صخر مخروطي، كما في بافوس، رمز لطبيعة الاله ولعبادته» ولا معنى هنا للدخول في شروحات المضمون الأصلي المتضمن في الرمز المخروطي وقداسته.«فقد كانت هناك مسلّتان متشابهتان تنتهيان الى مخروطين، او رأسين مستديرين، دعاهما العرب «مغازل» موضوعتين على مدخل معبد اتارغاتيس Atargatis في بامبيس Bambyce ويحتمل أن بعضاً منها أو مايشبهه كانت يقوم أيضاً في معبد ملكارت في صور. وفي معبد اوروشليم، وفي مسعى لإزالة كل بقية رمزية تنقض روح تعاليم الرب، استبدلت المسلتان بعمودين على قاعدتين برونزيتين، جاسثين Jachin وبواز Boaz ويمكن الى اليوم مشاهدة ثلاث مسلات من هذا النمط وسط آثار عمريت».

ويصعب على المرء اليوم بالتأكيد تحليل النوع الاخلاقي الديني القائم في روح ونسيج عبادة البعل الفينيقية القديمة : «كان بعل وعشتار ومعهما الالهة الوثنية كلها يقفون امام جرائمهم الوحشية الاكثر سوءاً».

ففي نظامهم الديني، أو في الممارسات التي تكوّن هذا النظام أو تتبعه، تجتمع على نحو بدائي، ولكن رمزي، مجموعة من الطقوس المرعبة، منها المآدب والبغاء على شرف المقدس، وكما هو الحال في سائر الأديان الطبيعية القديمة وينقل لينورمانت عن كريزور قوله «ويسكت هذا الدين المشاعر السامية كلها في الطبيعة الانسانية، ويحّقر عقل الانسان بطقوس فجة، متهتكة، وعبثاً نبحث في هذه الممارسات عن معنى للخير». وتضحيتهم بالبشر وسواها لبعل مولوك Moloch كانت تعقبها احتفالات ومآدب يتعاقب فيها على نحو فطري قبيح الحزن الشديد والفرح الشديد. ولطالما وصف المؤرخون القدامى الفينيقيين بالعناد والاسترقاق، بالقسوة والوحشية، بالفساد والتهتك. بالانانية والنهب وبالخلو من الايمان. لا نستطيع بالتأكيد ألا أن نتذكر هذه الخصوصيات المعتقدية والسلوكية بينما نتقدم جنوباً بين مدن الساحل التي بناها هذا الشعب، او بين مواقعه الجبلية الحصينة وهياكله الكثيرة.

والى الشمال تماماً من المسلات المخروطية الثلاث في عمريت يقوم معبد لافت محفور في الصخر في «عين الحية» والاسم يناسب المكان تماماً. اذ لا مكان آخر في سوريا تملأه الأفاعي السامة أكثر مما هي عليه في هذه الهضاب الاروادية. ففي كل نقلة لنا في المنطقة كانت تطالعنا روايات هذه الافاعي السامة. وفي واحدة منها بينما كنت اتقدم المرافقين سمعت خربشة بين سنابل القمح، ثم جفل حصاني الى الخلف لأرى أفعى ضخمة في سماكة الزند وطول يزيد على القدمين تبتعد ببطء نحو رجمة قريبة، وقبل أن يصرخ الولد المرافق لنا « انتبه أفعى». لقد كانت تلك أحدى أكثر أنواع الأفاعي سماً وخطراً. ومن المفيد هنا أن نذكر ما رواه ميشو في تأريخه للصليبيين أنه حينما وصل الجيش الصليبي الى ضفة النهر الكبير على بعد حوالى ١٥ ميلاً جنوب عمريت، بقي هناك مخيماً لثلاثة أيام هوجم في أثنائها من أفاعي سامة تدعى تارنتا Tarenta حيث لسعة الواحدة تجلب الموت مما أثار دهشة الجنود الصليبيين وهلعهم؛ إلا أن ما كان اكثر دهشة هو طريقة معالجة السكان المحليين لهذه الحالات: كان العلاج للسع الأفعى على قدر من القذارة مما يذكر بعبادات البعل البائدة التي كانت تمارس في هذه السهول بالذات.

والى الشمال الشرقي من العين هيكل صخري يبلغ طوله حوالى ربع الميل ينتهي في اعلاه الى حوالى ٩٠ قدماً قبل أن يهبط في درجات نحو الاسفل. يتألف الهيكل المحفور في الصخر من قاعة مساحتها ١٥٠ قدماً مربعاً، حفر منها ٩ أقدام تحت الارض ومفتوحة للناحية الشمالية لتشكل ممراً نحو ساقية الماء. وفي وسط الفتحة الشمالية حجر صخري مربع محلي المصدر مساحته ١٦ قدماً ونصف مربعاً وارتفاعه ٩ أقدام. وتقوم على الحجر أربعة أحجار أخرى: واحدة على كل جانب واخرى خلفها، وفوقها حجر بمثابة سقف صخري مساحته ١٤ × ٢/١ ١٢ قدماً مربعاً، وسماكته ٧ أقدام. قعره تجاه الاسفل بما يشبه التعريشة او التاج. وداخل هذه المشكاة او التجويفة كان هناك في الماضي، كما يبدو، تمثال لأله او معبود الاروادين وحول الآثار تلك بقايا نواويس وجدران واشارات الى مدينة قديمة. والمكان جميل اجمالاً فالى جنوبه يمتد سهل عكار الأخضر بمحاذاة الخليج والى مسافة بعيدة وصولاً الى مدينة طرابلس وجزرها على بعد حوالى ٣٠ ميلاً. ووراءه الى الجنوب الشرقي، ترتفع القمم الثلجية الشاهقة لشمال لبنان بينما تتلألأ غرباً مياه بحر الروم الزرقاء (البحر الأبيض المتوسط اليوم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على مسافة ثلاث ساعات جنوبي طرطوس تقوم عين ماء رائعة تنبع من ثغر لا يبعد اكثرمن عشرين قصبة عن الشاطئ تجري غزيرة قبل أن تلتحق بالبحر ويعرف المكان بـ «عين الهيشي Ain el Hishi ». وقد اشتهر طويلاً بكونه ملجأ للعصاة وقطاع الطرق الذين يجدون في مغاور الشاطئ مخابئ لهم تمكنهم من الانقضاض على طرائدهم ثم العودة الى ملاجئهم. وكان رجال البريد التركي والمسلمون هدفاً دائماً لغارات قطاع الطرق النصيريين في هذه المنطقة الوعرة. إلا أن ما يلفت هو ان تاجراً يونانياً كان يبني في أثناء مرورنا بالمنطقة بيتاً له هناك، بهدف الاقامة. كما أننا صرفنا ليلة لنا في ذلك المكان من دون ان نصادف ما يعكر صفو مقامنا. والأكثر إثارة من المنطقة هم سكانها أنفسهم والذين يسمون النصيرية. فهم يتحدرون عن الكنعانيين القدامى وهم لا ينتسبون لليهودية او النصرانية او الاسلام بل يحتفظون بعبادة الكنعانيين للنجوم والبعل، مع شعائر سرية تقام على التلال العالية، الى إضافات أخرى دخلت من الأديان الكبرى الثلاثة. وإلههم على حد قولهم هو عليٌّ وحينما يقولون الله فهم يعنون علياً. ولهم احتفالات في الختان تقدم فيها، الخمرة في شعائر خاصة سرية ومقدسة، وتعاليمهم هي أساساً مجموعة تجديفات ولعنات ضد الفرق الأخرى. أما اسمهم الحالي فهو مشتق من ابي شعيب ابن نصير ٨٦٠ م. وقد بدأوا كجمعية سرية مع إشارات سرية ومفاتيح اصطلاحية خاصة بهم. وحينما يموت الواحد منهم فالشائع عندهم هو الايمان أن المريخ أو جوبيتر قد نزل فأخذ روحه الى السماء لتغدو نجمة في درب التبانة. وهم يؤمنون بالتناسخ، او انتقال الأرواح، ولكن على طريقتهم إذ إنهم يعتبرون أن أرواحاً تذهب الى الحمير، وأرواحاً الى الخنازير، وأخرى الى القرود، بينما تنتقل ارواح الموتى النصيرية الى أشخاص آخرين. وليس مسموحاً للنساء عندهم الإطلاع على تعاليمهم السرية ولا حتى حضور احتفالاتهم أو شعائرهم المقدسة. فقد خلق الشيطان من آثام الرجال والنساء من آثام الشيطان. والروح تترك الجسد من الفم ولهذا يثير الاعدام شنقاً الرعب. ولهذه الأسباب وتحت دعوى أنهم كفرة، شن عليهم الاتراك حملات قمع، وباساليب بالغة الوحشية أحياناً والى حد الإفناء. ويصرّ بعض الكتاب المحليين، ومن قبيل المبالغة والاثارة، أن شيوخ النصيرية يقدمون نساءهم لضيوفهم حينما يزور بعضهم بعضاً لكننا لم نجد أي تأكيد لذلك عند أكثر من شاهد ثقة. وعلى المستوى الفيزيولوجي، السلالة النصيرية نبيلة ولكثير من شيوخهم طلة رائعة، كما أن صبيانهم وبناتهم يتلقون اليوم العلم في المدارس المسيحية في اللاذقية وسواها، كما سائر اطفال العرب السوريين، لا يقلون عنهم ذكاء أو قدرات.

لم نصادف جنوب طرطوس غير قرى نصيرية قليلة أما بعد دخولنا المنطقة اللبنانية، بعد طرابلس، فلم يكن هناك غير مسلمين ونصارى ودروز.

بعد عبورنا سهل عكار الفسيح نصل الى تل عرقه Arka، على نهر يحمل الاسم عينه حيث آثار الأركيين Arkites، والتل، كما يبدو، هو موقع العاصمة الاركية القديمة. وتتناثر في الوادي الصخري الذي يجري فيه نهر عرقه، وعلى المنحدر بقايا أعمدة ونواويس وآثار أخرى.

وعلى مسافة أربع ساعات من هذه البقعة تأخذنا الطريق الساحلي عبر نهر البارد الى «عين البداوي»، أو «شيخ البداوي» والمعروفة بـ «جامع السمك المقدس» ففي الطرف البعيد لسهل طرابلس الخصب الذي يتصل بمنحدرات خضراء جميلة، تقوم بركة مياه كبيرة تصبّ فيها عين ماء حلوة نقية وقريبة. يبلغ قطر البركة حوالى ١٠٠ قدم وعمق الماء فيها بين قدمين وثلاثة أقدام، وينتشر فيها بكثافة سمك، سمين، ملونٌ، يصل طول بعضه الى ٢٠ انشاً، ويطعم السمك زوار المسجد القريب الذين يتقاطرون من طرابلس، على بعد ثلاثة أميال او من المناطق القريبة، لزيارة ضريح «شيخ البداوي» في المناسبات او للتبرك بالسمك المقدس. ويشيع الاعتقاد أن أرواحاً بشرية تسكن هذه الاسماك وقتلها جريمة بالتالي. ومن الاعتقادات المتصلة بذلك أنه في أثناء حرب الاتراك مع روسيا اختفى عدد غير قليل من هذه الاسماك وغار تحت البحر لمحاربة الروس. وفي اعتقادهم كذلك أن من يأكل من لحم هذه الأسماك يموت سريعاً. إلا أنه في وسعي التأكيد وبعدما أكلت من لحمها في بيت عائلة ارثوذكسية ارستطقراطية في طرابلس قبل عشرين عاماً أن الاعتقادات تلك ليست غير خرافات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الرحلة بعد ذلك نحو طرابلس نفسها، فأمر يبعث على البهجة والسرور. فالطريق معبّد بالحصى، حسن الرصف؟ ويشق السهل الفسيح بين بساتين الزيتون الى اليمين، لجهة البحر، وبساتين التين والتوت الى اليسار. وإذ نتقدم اكثر بدت بيوت طرابلس أمامنا بسقوفها البيضاء ومناراتها ترتفع رويداً رويداً. ومع وقع كانت حوافر أحصنتنا تضرب في طريق باب التبانة المعبدة، كنا اذذاك على مدخل طرابلس، وكان كل ما هو أمامنا يوحي أننا إنما ندخل مدينة ذات خصوصية شرقية واضحة.

لايسع الداخل الى طرابلس اليوم إلا ان يقف مشدوهاً أمام هذا الانتقال السريع والغريب من الخانات القديمة والمزارات الاسلامية والاسواق المقببة وقوافل سائقي الجمال البدو، الى الحافلات اللماعة المزخرفة على خط تراموای طرابلس، والذي يبلغ هاهنا آخر محطة له شرقاً. إنه التقاء الشرق بالغرب او سوريا الماضي بسوريا المستقبل.

انشئت طرابلس في حوالى سنة ٧٠٠ قبل الميلاد الا أن تاريخها جرى على تقطّع. فقد أقام الحاكم ديميتروس الاول قصراً له هناك ثم تبعه عمّاله الرومان الذين اقاموا قصوراً جميلة وانشاءات أخرى. لكن الزلزال عاجل طرابلس آنذاك فازال معظمها ولم يبق غير القليل من المدينة القديمة. ثم كانت نهضتها الكبرى مع الفتح الاسلامي. ومع مطلع الحملات الصليبية على الشرق، لم يتمكن الصليبيون من دخول المدينة الا بعد خمس سنوات من احتلالهم لانطاكية سنة ١١٠٤. مع دخول الجيش الصليبي المدينة جرى تدمير احدى أعظم مكتبات العصر، التي كانت تضم اكثر من مئة الف مجلد، الى تحف ومخطوطات نادرة من ثقافات الفرس والعرب والمصريين واليونان. كان في المكتبة على الدوام اكثرمن مئة ناسخ يعملون على استنساخ المخطوطات القديمة. وكان قاضي المدينة يرسل عماله الى سائر البلدان يحصلون منها على أهم الكتب وأكثرها ندرة. وما حدث بعيد الدخول الصليبي أمر مروع. فقد دخل أحد الرهبان التابعين للكونت برنار دي سان جيل غرفة في المكتبة جمعت فيها نسخ كثيرة من القرآن فما كان منه إلا أن أفتى أن مكتبة طرابلس لا تضم غير كتب محمد. وعليه فقد جعل ذلك الصرح العلمي الضخم طعماً للنيران. ويجعل ابن ابي طي عدد مجلدات المكتبة ثلاثة ملايين، وأن النصارى قد فعلوا بمكتبة طرابلس ما فعله العرب بمكتبة الاسكندرية بعيد دخولها. الا أن النوباري يثبت عدد مجلدات مكتبة طرابلس في حدود المئة الف. والى ذلك، يروي المؤرخون أنه حين دمر السلطان قلاوون المدينة سنة ١٢٨٩ كان فيها ٤٠٠٠ نول لنسج الحرير، ومنها شهرة زنّار الحرير الطرابلسي المعروف الى اليوم. دعا العرب المدينة طرابلس، وهو اسم مشتق من اسمها القديم تريبولي Tripoli اما الاتراك فقد دعوها «لوباك شام» أو دمشق صغيرة وهي تسمية في محلها تماماً.

تقع طرابلس عند الطرف الشرقي لسهل مثلث الشكل عرضه حوالى الميل الواحد وتستند قاعدته الى هضاب الكورة التي ترتفع من ١٠٠ الى ٣٠٠ قدم، لتبلغ أقدام سلسلة جبال لبنان.

يجري نهر قاديشا المقدس، وقبل ان يبلغ طرابلس من بشري على حافة أرز لبنان ويجري لاثني عشر ميلاً في واد رهيب ثم يتلّوى بين هضاب أقل وعورة ولثمانية عشر ميلاً، الى أن ينتهي في مجرى يضلله شجر كثيف يصل به الى سهل طرابلس حيث تنتشر المدينة على ضفتيه. ولشدة هديره في الشتاء دعاه المسلمون «نهر ابو علي»، يجري وسط المدينة وعليه جسران حجريان بالقرب من الجسر الحديث المخصص لمرور التراموای. وعلى التلال الواقعة على الجانب الايمن من النهر تقوم منازل متواضعة للفلاحين الموارنة، أما القسم الآخر بين النهر وباب التبانة فيسكنه المسلمون. يقوم الجزء المسيحي من المدينة في أقصى شمال النهر، بينما يمتد الجزء المسلم من طرابلس وصولاً الى بوابة الحدادين الجنوبية. ويتألف سكان طرابلس من ١٢ الف مسلم و ٤٠٠٠ روم ارثوذكس، و٥٠٠ ماروني، وأعداد صغيرة من اليهود والانجيليين والروم الكاثوليك. وتعيش كل طائفة في حي منفصل؛ وكذلك تحتل كل تجارة، كما في دمشق سوقاً مخصوصاً بها.

وعلى بعد خمسة أميال الى الشمال الشرقي من طرابلس تجري المياه من قرب زغرتا في قناة ثم تقطع نهر قاديشا على بعد ميل من المدينة في قناطر البرنس(قناطر الامير) وهي التي انشأها ريمون دي تولوز الذي كان لفترة كونتاً على

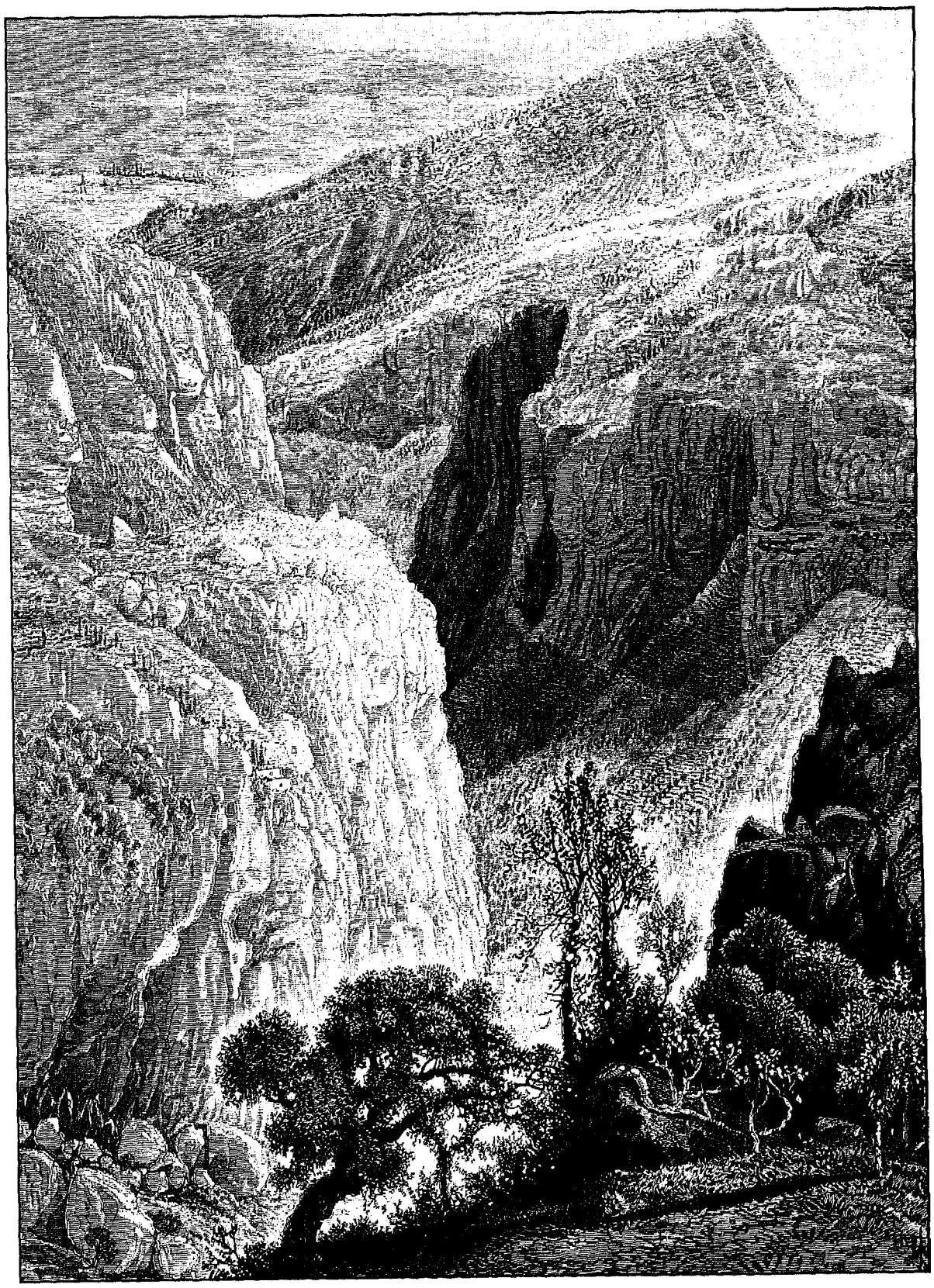

وادي قاديشا (النهر المقدس)
وفي البعيد البحر المتوسط وميناء طرابلس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طرابلس أيام الحكم الصليبي. ثم تصل المياه الى الخزان المركزي الذي يقوم في غرفة صغيرة تحت القلعة، فيها ثقوب صغيرة في قعرها، قطر الواحد منها بضعة إنشات، توزع فيها مياه نظيفة تجري في أنابيب أرضية الى سائر أجزاء المدينة. وهكذا ففي كل منزل وجامع في طرابلس بركة تصب فيها المياه ليل نهار، مما يرطب هواءها وينعش جوّها صيفاً لكنه يغرقها بالسيول شتاء. ومعظم بيوت المدينة مبني من حجارة رملية صفراء مقتطعة من صخور الشاطئ بينما قليلها فقط مبني من حجارة الصخر العادية. وأرضيات معظم المنازل ترابية رطبة وبعضها مرصوف بالبلاط الصخري، وكل السكان ينامون ليلاً في الطبقة الثانية من منازلهم. وشوارع المدينة في معظمها حسنة الرصف، تعلو بعضها السقوف ذات القباب، ولتبدو احياناً اشبه بسراديب، كما حال بعض اسواق بيروت وصيدا الداخلية. وتلفت الاهتمام عتبة صخرية فوق بوابة «الحمّام الجديد» في طرابلس حيث الحجر الوسطي في قنطرة العتبة والحجران على الجانبين مع حجر يتدلى من الوسط فوق الباب منحوته جميعها في حجر ضخم واحد. وآثار العمارة العربية في طرابلس لافتة وتثير الاهتمام وبخاصة القناطر والبوابات.

وبين آثار طرابلس اللافتة قلعة ريموند دي تولوز التي مازالت في حالة حسنة الى اليوم وقد جعلها مدحت باشا اخيراً سجناً تابعاً للولاية. ويمكن أن تكون القلعة قد انشئت قبل العهد الصليبي، ولكن ريموند دي تولوز أعاد ترميمها. والى الخلف من القلعة نزولاً نحو مجرى النهر، وعلى مسافة بضع دقائق فقط بين الشجر والزهر والمياه الدافقة، ودار الملاّوية، وبساتين الليمون بينما ثلوج لبنان في البعيد تلامس الغيم. والى الغرب يمتد السهل فسيحاً يحاذي زرقة البحر تقطعه عند الشاطئ المدينة البحرية، او الميناء والابراج الخمسة على امتداد الشاطئ الشمالي؛ وسقوف المدينة البيضاء والقباب والجدران والاسوار والمنارات تتناثر أمامك أو بين يديك. وفي وسع زائر طرابلس، إن اسعفه الحظ فأقام في نزل عمره سنوات وسنوات، ان يمتع ناظريه وعلى الدوام بجمال البناء والبساتين المحيطة الغناء، وينعم بكرم هؤلاء الناس وضيافتهم.

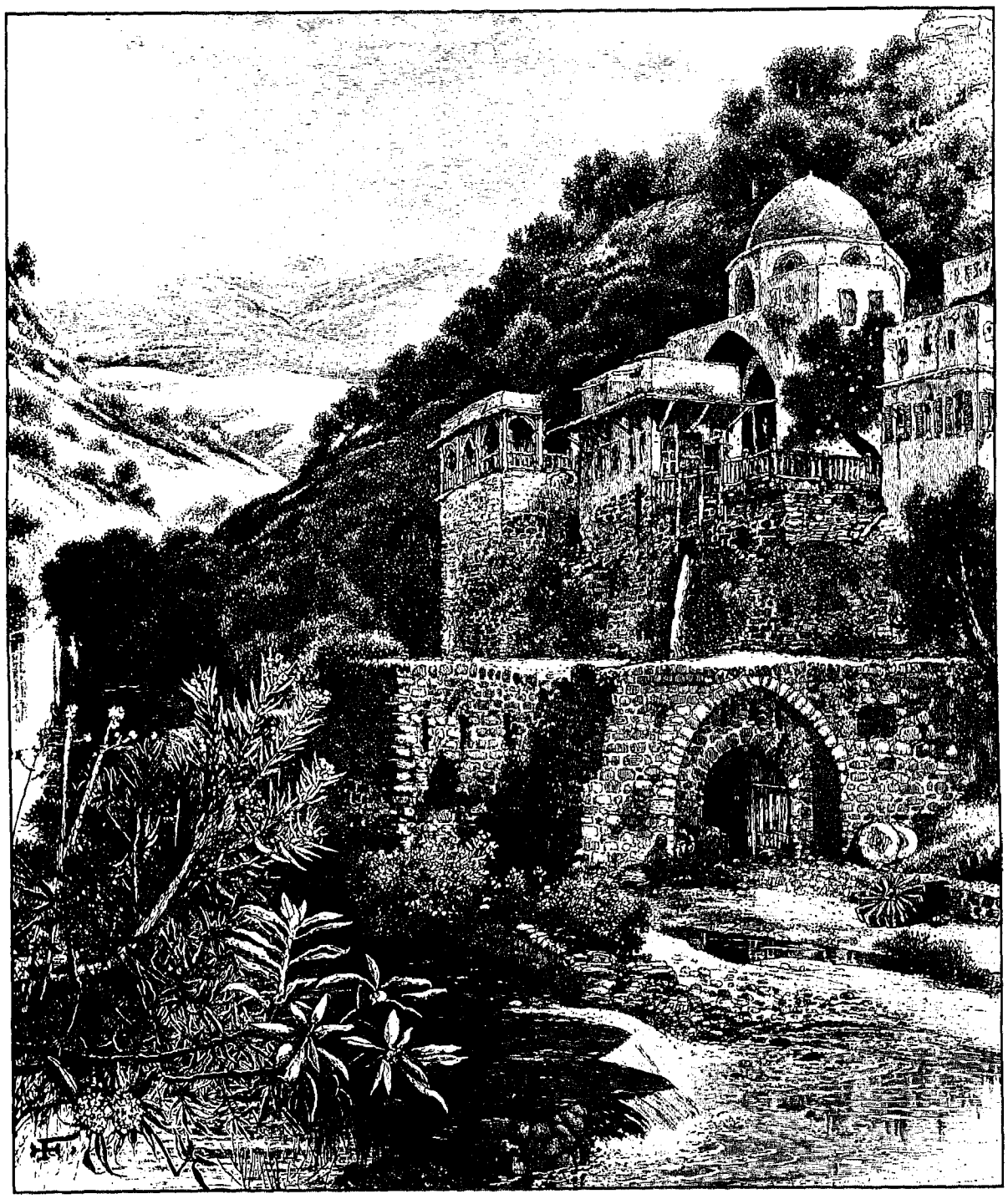

دير الملاوّية، طرابلس
ومن بعيد القمم الثلجية لجبال لبنان، وفي الاسفل مياه قاديشا،
التي تدعى كذلك نهر ابو علي. وعند البوابة
يمكن رؤية دولاب المياه وحجري طحن.

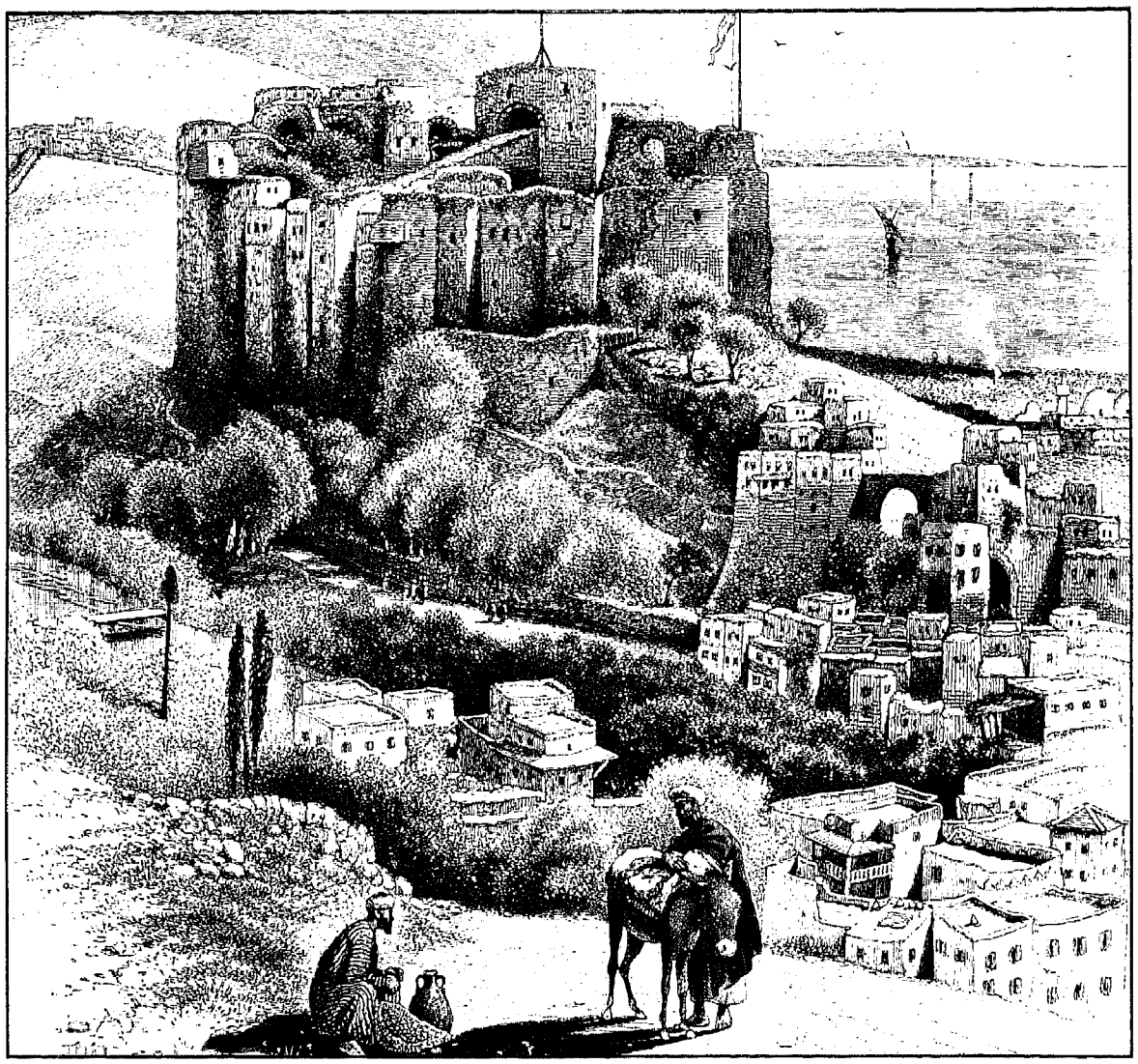

قلعة طرابلس، حصن صليبي قوي
وقد حوّلت الى مركز اداري ايام حكم مدحت باشا على
سوريا، وتقوم على هضبة ضيقة تنحدر غرباً صوب المدينة
وشرقاً صوب قاديشا.

والى الخلف من القلعة نزولاً نحو مجرى النهر، وعلى مسا فة بضع دقائق فقط بين الشجر والزهر والمياه الدافقة تصل الى دار دراويش الملاوية، حيث يحيي الدراويش رقصاتهم الدينية المتميزة بعد ظهر نهارات الجمعة وفي مناسبات معينة. ولقد صادف ان رأيت جماعة منهم، الرجال في الساحة بينما النساء في الأعلى خلف الستائر، حيث بدأ ثمانية او تسعة من الدراويش، يرتدون ثياباً واسعة فضفاضة مدهشة، بالرقص والدوران حوالى الساعتين، ولم ينفرط الجمع الا بعد ان سقط الراقصون، واحداً تلو الاخر مغشياً عليهم. وهذه البقعة الخضراء الساحرة هي ملتقى الطرابلسيين في شهر نيسان حيث شذا زهر الليمون وعبق الرياحين يضفيان على المكان جواً ساحراً يصعب على زائره نسيانه.

وتنتشر على امتداد الشاطئ الشمالي بين مصب قاديشا والميناء، أبراج جميلة مبنية بالحجارة تقف كما الحراس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على طول ذلك الشاطئ. والأبراج هي برج رأس النبع، برج السبع، برج التكيّة، برج المغاربية، وبرج الشيخ عثمان. ومن الواضح ان الأبراج يعود بناؤها الى زمن متأخر لكنها تقوم على أسس وقواعد من الغرانيت تعود الى الحقبتين اليونانية والرومانية. الا أن هذه الأبراج تسير بسرعة نحو التساقط والزوال ويجري على قدم وساق سحب حجارتها لأغراض البناء الحديث في طرابلس.

أما سكان الميناء (راجع ص ٥) فهم حوالى ٧٠٠٠ ساكن، معظمهم من الارثوذكس الصيادين، او الغطاسين وراء الاسفنج؛ فيحصلون من ذلك ما يكفي احتياجاتهم الضرورية ويبلغ ثمن الاسفنج المستخرج حوالى ٢٠٠٠٠ جنيه سنوياً.

وتمر في بوابة الميناء سكة تراموای طرابلس الفولاذية قبل أن تتجه نزولاً مع شاطئ البحر.

ويفخر الطرابلسيون كثيراً بحدائقهم الجميلة وبساتينهم المثمرة ومياههم المترقرقة، وبمناظر البحر والجبل الخلابة. كما أن نساء طرابلس السوريات الارثوذكسيات على قسط وافر من الجمال، والكثيرات منهن قد حصّلن مقداراً عالياً من العلم في المدارس المسيحية، ويتمتعن بذكاء لافت كذلك تقدم مدارس الارسالية الاميركية تعليماً عالياً للصبيان وللبنات، وتُكسب الشباب من الجنسين مستوى تعليمياً متقدماً وللاخوات الفرنسيات للاحسان، مؤسسة للبنات. كذلك افتتح الروم الارثوذكس مدارس عدة، كما أسس المسلمون جمعية «المقاصد الخيرية الاسلامية» لتوفير المدارس للصبيان والبنات. ويبقى أنه اذا اكتمل تنفيذ الخط الحديدي المقترح من طرابلس الى حمص ووادي الفرات Eu-phrates، فان ذلك كفيل بجعل طرابلس أهم ميناء تجاري على الساحل السوري قاطبة.

ومن طرابلس الى سلسلة جبال لبنان التي تمتد حوالى المئة ميل، والتي هي ثروة جيولوجية ونباتية واقوامية وأثرية لا تقدر بثمن. فالجبل اللبناني بهضابه العالية وقممه الشاهقة، بثرواته وبخيراته الجوفية، بينابيعه وشلالاته البديعة بأرزه الجليل، بكرومه وزيتونه، بآثار هياكله وعماراته القديمة والتي لا يُعرف تاريخها، بأديرته، وكنائسه وخلواته (معابد الدروز)، بقصوره، بتركيبه الجيولوجي، بقراه الالف والمائتين وبسكانه الشرقيين الاقحاح يؤلف بفعل هذه العناصر جميعها حقل اهتمام ودراسة واستكشاف لا ينضب لعابر السبيل كما للدارس الأكاديمي المتخصص.

ولبنان أو جبل سوريا الأبيض يشتق اسمه من إشراقة بياض صخوره الكلسية، وقد قسم العرب لبنان الى ثلاث مناطق طولية: السهل، والوسط، والجرد.

السهل هو المنطقة الساحلية، او حزام النخيل يتدرج من مستوى سطح البحر الى ارتفاع ١٥٠٠ قدم وتقع في هذا الحزام مدن فينيقيا الحديثة، وهي طرابلس، وجبيل، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكّا. وتربة هذا السهل هي الأكثر خصوبة، ومناخه معتدل ملائم أكثر فصول السنة ومناظره الطبيعية خلابة، وتكثر فيه زراعات النخيل والزيتون والتوت والليمون والصنوبر والمشمش والسنديان والخوخ والعنب والزنزلخت، الى الخضار كافة وعلى مدار السنة.

والوسط، أو المنطقة الوسطى أو ما يمكن تسميته بحزام الجوز، يتدرج من ارتفاع ١٥٠٠ قدم الى ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وتتألف هذه المنطقة من هضاب عالية معروفة بقراها الكثيرة المتناثرة وبمعامل حريرها وأديرتها وفي هذه المنطقة يقيم معظم السكان. اما مناخها فلطيف معتدل، صيفاً شتاء ولعله الأجمل والانسب في العالم.

والجرد أخيراً، وهو حزام من القمم الجبلية الجرداء عموماً يرتفع من ٤٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. ويمكن تسميته بحزام الأرز، اذ فيه غابة الارز والكثير من الينابيع الثلجية الباردة العذبة، الى مساحات جرداء واسعة وتمتد جبال هذا الحزام الى أكثر من مئة ميل من الشمال الى الجنوب. وبالرغم من ندرة الغابات في هذه القمم العالية، الا أنها تطل على بعض أجمل مناظر العالم.

كان لبنان ينقسم، قبل مذابح ١٨٦٠ الى قسمين: لبنان الشمالي يحكمه قائمقام مقام ماروني، ولبنان الجنوبي يحكمه الدروز: وكان ذلك ترتيباً دقيقاً موضوعاً بعناية ليضمن العدالة بين السكان والاستقرار في البلاد. لكن الأتراك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانوا مصّرين على كسر هذا الترتيب الأوروبي فعملوا على ازالته وأحلوا بدلاً منه باشا عثمانياً على سائر لبنان. وكانت نتيجة ذلك حروب ومذابح في دير القمر وحاصبيا وراشيا وفي دمشق، والتي انتهت بتدخل أوروبي مباشر ووضع نظام جديد للبنان يضمن تعيين حاكم مسيحي على الجبل كله تحت حماية الدول الأوروبية الست ويلي الحاكم القائمقامون. وقد جرت العادة على اختيار قائمقام المنطقة من بين أفراد الطائفة المحلية الاكثر عدداً. ومن الواجب الاشارة هنا الى الحاكم الحالي رستم باشا (ثالث والٍ وفق النظام الجديد) لخصائل حسنة كثيرة فيه؛ من كرهه الشديد للرشوة الى عدالته وجهوده في سبيل إعمار البلاد وتمدين السكان وانشائه العديد من الطرق والجسور في جنوب لبنان ووسطه، وهو يعد بالمثل في هذه المنطقه الشمالية غير النائية.

وقبل التحول شرقاً والصعود باتجاه الأرز العالي، تابعنا تقدمنا في محاذاة الشاطئ بين الصخور الكلسية البيضاء لرأس الشقعة لزيارة وادي نهر الجوز وقلعة المسيلحة. تمر الطريق الساحلية التي تصل طرابلس ببيروت في خلال هذا النتؤ الصخري الحاد والذي دعاه الاغريق قديماً ثيوبروسوبون (أو الرأس الجليل). والطريق في جانبه الجنوبي متعرج خطر غير ثابت بل هو يستعين بالممرات التي شقتها سيول المطر والتي قد تتغير من سيل الى آخر او من سنة الى سنة. وفي أقصى طرف هذا المنحدر على الضفة اليمنى من نهر الجوز تنتصب كتلة صخرية مرتفعة، منعزلة متوحدة، دعاها الاقدمون قلعة المسيلحة، أي حصن السلاح او المسلحين وترتبط التسمية بأعمال النهب والسلب التي تجري في هذه المنطقة والتي لا يضاهيها غير وادي القرن الممر الجبلي الشرقي باتجاه دمشق. والقلعة هي أحد المواقع اللافتة في الشرق، ترتفع ككتلة صخرية متفردة عالية فتبدو وكأنها امتداد طبيعي للصخر نفسه، ويحيط بها شجر وارف وخرير المياه.

وانعطفنا بعد المسيلحة نحو سهل الكورة ثم شرقاً باتجاه كوسبا فنهر قاديشا وتابعنا مسيرنا صُعداً نحو اهدن البلدة الجبلية العالية. تقوم إهدن على مرتفع في الجرد ربما بلغ ارتفاع ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتطل منها على بعض أجمل المناظر في لبنان وفي جوار إهدن تتدفق من نبع مار سركيس مياه عميقة غزيرة عذبة وشديدة البرودة تروي البلدة ومحيطها فتعلو أشجار الجوز والسرو والتوت والصنوبر والسنديان الى الخضار الصيفية والحنطة والبطاطا تزرع بكثافة. واهدن هي جنة الرهبان الموارنة حيث لهم وكما في بشري وحصرون وكسروان، سلطان لا ينازع مع أن صلاحياتهم وحدود سلطتهم قد تقلصت في عهد الحاكم المدني الحالي لتبقى في الشأن الديني حصراً.

لا تتسع هذه الجولة السريعة الى أكثر من إشارة مختصرة الى تاريخ الطائفة المارونية المسيطرة الآن في لبنان. يشتق اسم الموارنة من مار مارون، الناسك الذي عاش في أقصى البقاع قرب نبع نهر العاصي، في القرن الخامس وكان مجلس بيزنطية قد أدان سنة ٦٨١ اتباع مار مارون باعتبارهم أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة، فطردوهم من مدن سوريا وبلداتها، فالتجأوا الى جبال لبنان . وفي سنة ١١٨٢ أعلنوا ولاءهم وانتماءهم الى الكنيسة البابوية، وهم اليوم فخورون جداً باخلاصهم لبابا روما لكن الأمر احتاج يومذاك الى قرنين آخرين اي حتى سنة ١٤٣٨، كي يشمل اعترافهم بسلطة البابا المسائل والطقوس الكنسية. وكهنة الأبرشيات عندهم متزوجون وهم يستخدمون اللغة السريانية في خدمة القداديس في الكنائس. ويدين بطركهم وهو اليوم بولس بطرس مسعد، ويتخذ اسم بطرس بمثابة لقب رسمي، بالولاء المعنوي للبابا شخصياً. وتحت سلطة البطريرك ١٣ مطراناً وألف كاهن، و١٢٠٠ راهب و٧١ ديراً. يبلغ تعداد الموارنة مئتين وخمسين الفاً (٢٥٠٠٠٠) معظمهم أميون والاملاك الشاسعة التي تتبع الأديرة مكرسة لإعالة الرهبان، ويدفع من مردودها لقلة تدير الاملاك. أما عدد الأديرة الاجمالي، ولكل الطوائف، فهو ١١٧ ، وفيها ٢٥٠٠ راهب وراهبة.

وبالعودة الى اهدن نقول إنها قرية لبنانية نموذجية فيها عدد من الدور او المنازل الكبيرة تحيط بالواحد منها بيوت الفلاحين ذات السقوف الترابية. واهدن معروفة بكنائسها ذات الصوت الداوي، بديرها عند مار سركيس، بمياهها الغزيرة، بتنورها البدائي وهو عبارة عن حفرة في الأرض، وبشبانها الأقوياء وصباياها المفعمات بالعافية مع زينة فريدة على الرؤوس وحيث الحجاب الأبيض. ومعروفة كذلك ببيوتها الصغيرة الفقيرة حيث ينام الفلاحون على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرض غير بعيدين عن غنمهم وماعزهم، واحياناً في غرفة كبيرة واحدة تتسع للأب والأم وأطفالهما.

قلعة المسيلحة
تقوم على صخر حاد قرب نهر الجوز، في وسط وادي
تملأه الغابات، وتسيطر على الممر المجاور. وكانت الى عهد
قريب ملجأ لقطاع الطرق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن اهدن الى حصرون حيث جمال نسائها وبناتها لافت، بل ان الاكثر إلفاتا فيها هو الشعر الأشقر والعيون الزرقاء.

وبعد مسيرة ساعتين ونصف الساعة نزولاً، فوق ركام من الاتربة والحصى بفعل السيول تمتد شرق أهدن وبمثابة طوق يحيط بسقف تلك الجبال الشاهقة، نصل الى بشري عند الطرف الشرقي لوادي قاديشا. وتعتبر بشري أكبر بلدات المنطقة سكاناً كما أنها عامرة بكنائسها وأديرتها، بمائها وشجرها، وتتفجر الى الشرق منها الينابيع الدافقة التي تغذي النهر المقدس. واذا قيض لك ان تترك بشري وان تصعد اكثر نحو قمة ذلك الجبل فستغدو وجهاً لوجه امام غابة منعزلة متوحدة تضم أشجار الأرز او ما يدعى بأرز لبنان او أرز الرب.

واذا كان مسيرك في نيسان فلا يسعك الا ابطاء الخطى فوق البقع الثلجية المتبقية او فوق الحقول الموحلة وكذا في آب فوق الأرض الجافة المغبرة والمشققة. تضم غابة الأرز تلك ٣٩٣ شجرة، عشر منها او اثنتا عشرة على اتساع ضخم رغم أن أعلى شجرة فيها لا تتجاوز الثمانين قدماً. والشجرات الأثنتا عشرة الضخمة، هي حسب اعتقادات الفلاحين، الرسل الاثنا عشرة. بل إنهم ليؤمنون أن الرب ورسله الاثنا عشر قد جاءوا هذه البقعة وتركوا فيها عصيهم فنبتت أرزات ضخمة في القرية، وفي الغابة معبد ماروني صغير، كما ان السلطة الوحيدة على الغابة المقدسة هي للبطريرك الماروني. وتشيع الأوساط الكنسية الاعتقاد أن من يقطع شجر الارز تعاقبة العناية الالهية بالمرض، ولا يسع المرء الا ان يبتهج حين يرى أن واحدة على الأقل من بين الآف الأساطير التي تملأ سوريا تتضمن فائدة عملية للسكان، وتتمثل بالمحافظة على تلك الاشجار الثمينة*، وهناك ما يكفي من الأدلة للافتراض أن سلسلة جبال لبنان العالية كانت في وقت ما مغطاة بغابات الأرز. ولقد اتيح لنا زيارة إحدى عشرة غابة أرز في غير بقعة من هذه الجبال:

١ ـ غابة «ارز الرب» فوق بشري، ٣٩٣ شجرة أرز. ٢ـ غابة صغيرة عند نبع إهدن ٥٠ شجرة. ٣ـ الغابة الكبرى بين الحدث ونيحا تضم عشرات ألوف الأشجار وتمتد على مسافة ١٢ ميلاً مربعاً. ٤ ـ غابة أصغر حجماً جنوب ذلك الموقع ، ٥ ـ أشجار ارز متناثرة فوق دوما. ٦ ـ غابة عين زحلتا ، ١٠ الآف شجرة قطعها مراد اكتيل، ويجري استنباتها من جديد . ٧ ـ غابة اصغر عند منحدر المدق El Meduk ٨ ـ مجموعة صغيرة قرب قلعة البزات Bizzet. ٩ ـ الغابة الجميلة عند «معاصر الفخار» تضم ٣٠٠ شجرة بعضها ذو أحجام ضخمة، ١٠ ـ غابة جرد الباروك وتضم ألآف الاشجار . ١١ ـ غابة الباروك الشرقية وتضم ٢٠٠ شجرة.

أما أول ذكر لأرز لبنان في التاريخ فيرد حينما ابتنى سليمان لنفسه قصراً من خشب الارز (صموئيل) ثم أمر ان يبنى الهيكل ايضاً من خشب أرز لبنان فعمل ٤٠٠٠ حطاب في الجبال على قطع الاشجار التي كانت تسحب بحراً من جبيل الى يافا.

وفي سنة ٥٣٦ قبل الميلاد استأجر زروبابل Zerubbabel فينيقيي صيدا وصور «لجلب خشب شجر الأرز من لبنان الى بحر جوبا Joppa؛ كذلك استخدم الأرز قديماً في صناعة السفن وفي اقامة هياكل وتماثيل للالهة. وبعد انتصار حملات Tigath pilsner على Khatti والحيثيين واخضاع كرشميش، زار لبنان كيله شرغات Kileh shergat. للحصول على شجر الأرز لتزيين المعابد والقصور وهكذا أزيلت تقريباً غابات أرز لبنان قبل حوالى ٣٠٠٠ سنة من قبل ملوك البلدان المجاورة، الى درجة أن الجبال العالية تعرت تقريباً من غاباتها وتكفل بالباقي قطعان الماعز وإهمال الفلاحين الأمر الذي قضى على فرص استنبات غابات جديدة. واذا لم تبادر حكومة لبنان الى اتخاذ خطوات عملية لحماية الغابات القليلة المتبقية فان الجبل بأكمله مهدد بأن يفقد ثروته الحرجية الجميلة.

يعود التكوين الجيولوجي للبنان الى العصر الثالث، العصر الطباشيري، مع طبقة من الصخري الرملي الهش تمتد

---

* من مآثر رستم باشا تسيجه بحائط حجري حماية لها.

من اقصاه الى اقصاه، تقطعها بين الحين والحين صخور وشقوق بركانية. وفي الصخر الرملي طبقة خفيفة من الفحم الحجري جرى استخراج بعضه في موقع بالقرب من بلدة قرنايل في المتن شرقي بيروت. ووجد البروفسور لويس من

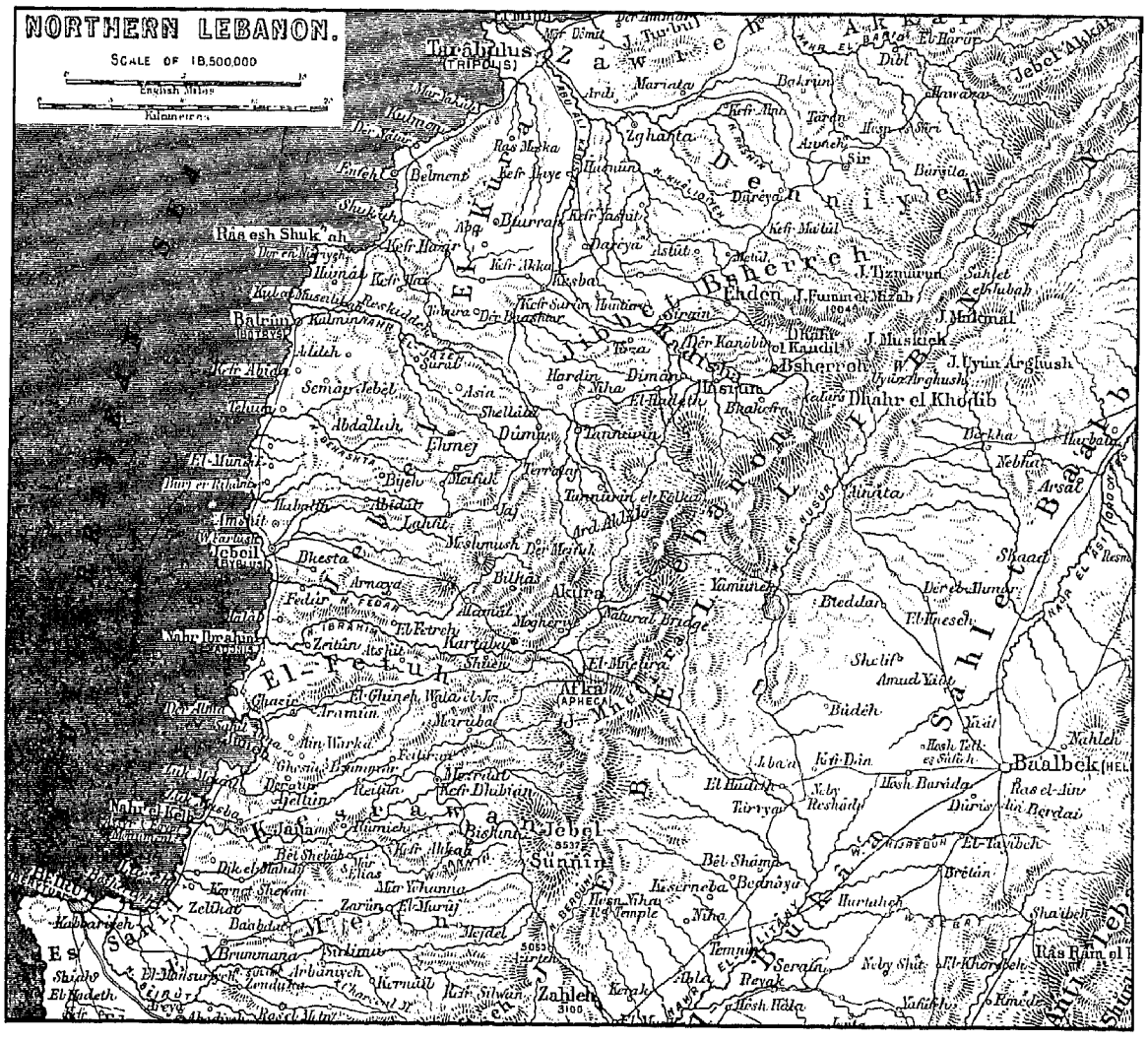

خارطة لبنان الشمالي

كلية بيروت الكلس في غير بقعة ومكان ووجد في مجدل شمس على سفوح جبل حرمون بصيلات جوراسية تحتوي الامونيات المتبلور وغيره وبكميات كبيرة .

كانت الطبقة الصخرية في لبنان، خلال التاريخ عرضة لاضطرابات جيولوجية داخلية عنيفة، بحيث يمكن ملاحظة حدة زاوية انحنائها في أكثر من مكان. ففي عريض اكلوك* Akluk قمة تدعى جبل Akluk يبدو من بعيد كما

* يرجح انه اللقلوق [م]

لو كان حصناً بناه بشر. واذا نزلنا غرباً، ثم الى الجنوب الشرقي، نصل بعد حوالى أربعة أميال الى العاقورة عند نهاية وادٍ عظيم هو وادي المحجرية وفيه بعض النقوش. والى الشرق من العاقورة يمكن مشاهدة حائط صخري يرتفع حوالى ١٠٠٠ قدم وينشق ليفتح طريقاً باتجاه الشرق وأخرى الى عين الرمة والأرز وبعلبك عبر اليمونة. والعاقورة بلدة جردية صغيرة إلا أن جانبي الوادي تملأهما الخضرة والمزروعات الصيفية فيكثر الجوز والتوت والاشجار المثمرة الأخرى، الى حقول قمح وشعير.

وعلى بعد نصف ساعة جنوباً من كعب ذلك الحائط الصخري الهائل المعلق فوق الوادي تصل الى جسر العاقورة الطبيعي وتحته كهف طبيعي. نشأ الجسر من سقوط صخر عظيم كان في وقت ما سقفاً لمدخل الكهف ثم انفلت ليغطي الآن قناة نبع الرويس التي تنبع من داخل المغارة. تركنا أحصنتنا على الجسر تحت الحائط الغربي، وحملنا عصينا وتسلقنا الدرج الصخري الذي يوصل الى مدخل المغارة ثم دلفنا الى الداخل مستعينين بمصابيح. يعلو سقف المغارة بين عشرة وعشرين قدماً وأمكن لنا أن نسير فيها الى مسافة ٤٠٠ قدم، اي الى النقطة التي تنشطر

شير العاقورة، في وادي المغيرية، لبنان
وقد زرعت كل زاوية يمكن زراعتها في الوادي،
وتملأ جنباته الاشجار المثمرة وحقول القمح.

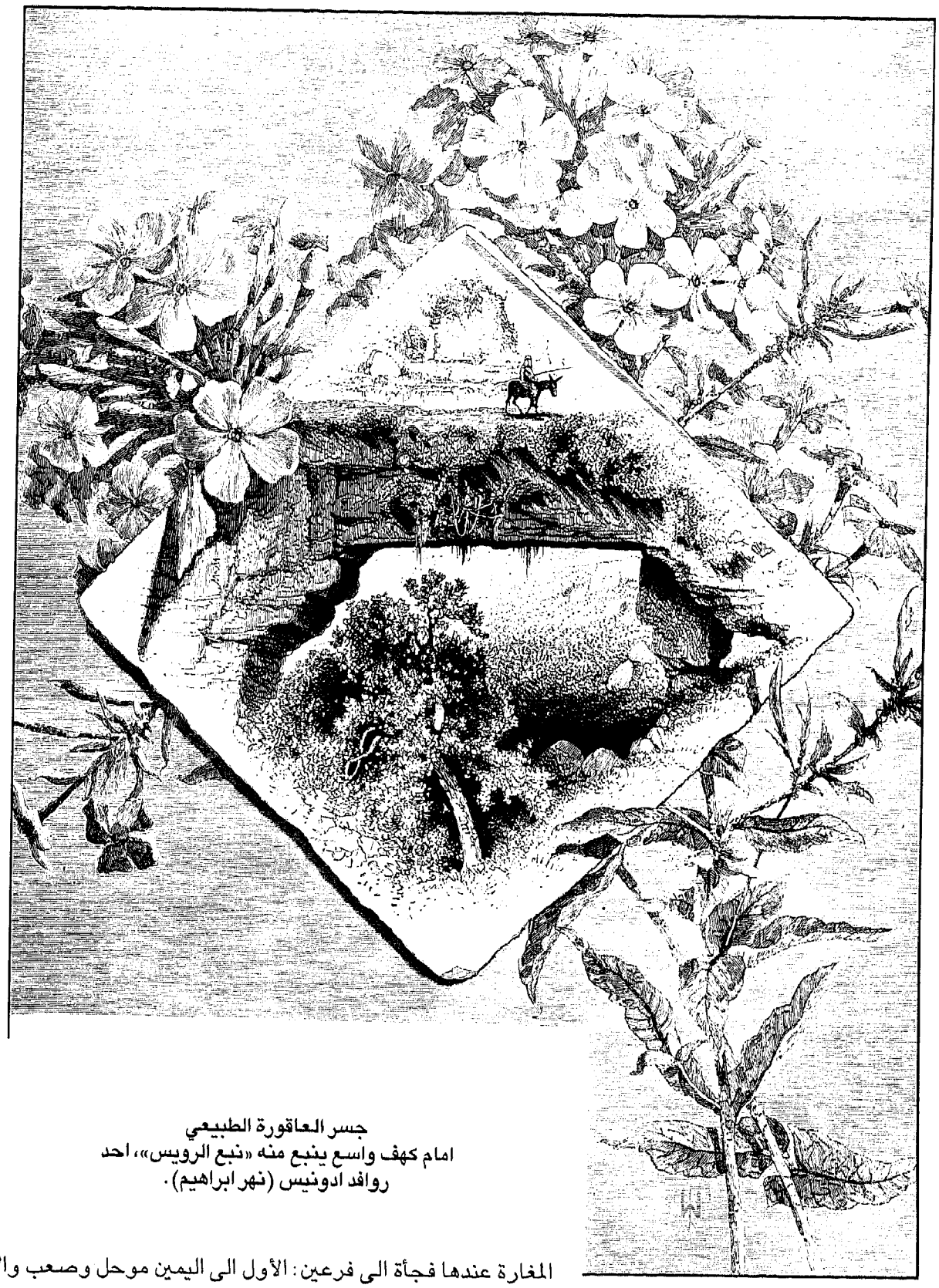

جسر العاقورة الطبيعي
امام كهف واسع ينبع منه «نبع الرويس»، احد روافد ادونيس (نهر ابراهيم).

المغارة عندها فجأة الى فرعين: الأول الى اليمين موحل وصعب والآخر الى اليسار نظيف تحيط به من الجانبين وتعلوه اقواس وزخرفات واشكال كأنما نحتت من الشمع، وداخل المغارة ساقية ماء تجري صافية كالبلور والى الحد الذي جعلني أدوس في بركة في عمق قدم واحد معتقداً أنها جافة. ونكمل طريقنا بين جنبات هذا المعرض

نبع أفقا
مصدر مياه نهر ابراهيم (ادونيس). وبالقرب من هذا المكان اثار هيكل فينوس المعروفة، والذي دمّر بأمر من (الامبراطور) قسطنطين.

الطبيعي الرائع لحوالى ٤٠٠ قدم أخرى حيث نصل الى قاعة مقفلة، حيطانها عامودية حادة، ولا يمكن النفاذ منها إلا بتسلق أحد جدرانها المفضية الى مغارة أعلى واسعة لكن ذلك كان متعذراً من دون سلالم فعدنا أدراجنا الى المدخل من حيث أنطلقنا.

بين العاقورة ونبع افقا مسافة ساعة ونصف الساعة تعبر خلالها مسطحاً يعلو الوادي الذي تملأه حقول القمح الى اشجار تتناثر هنا وهناك، ثم نتجه في طريق

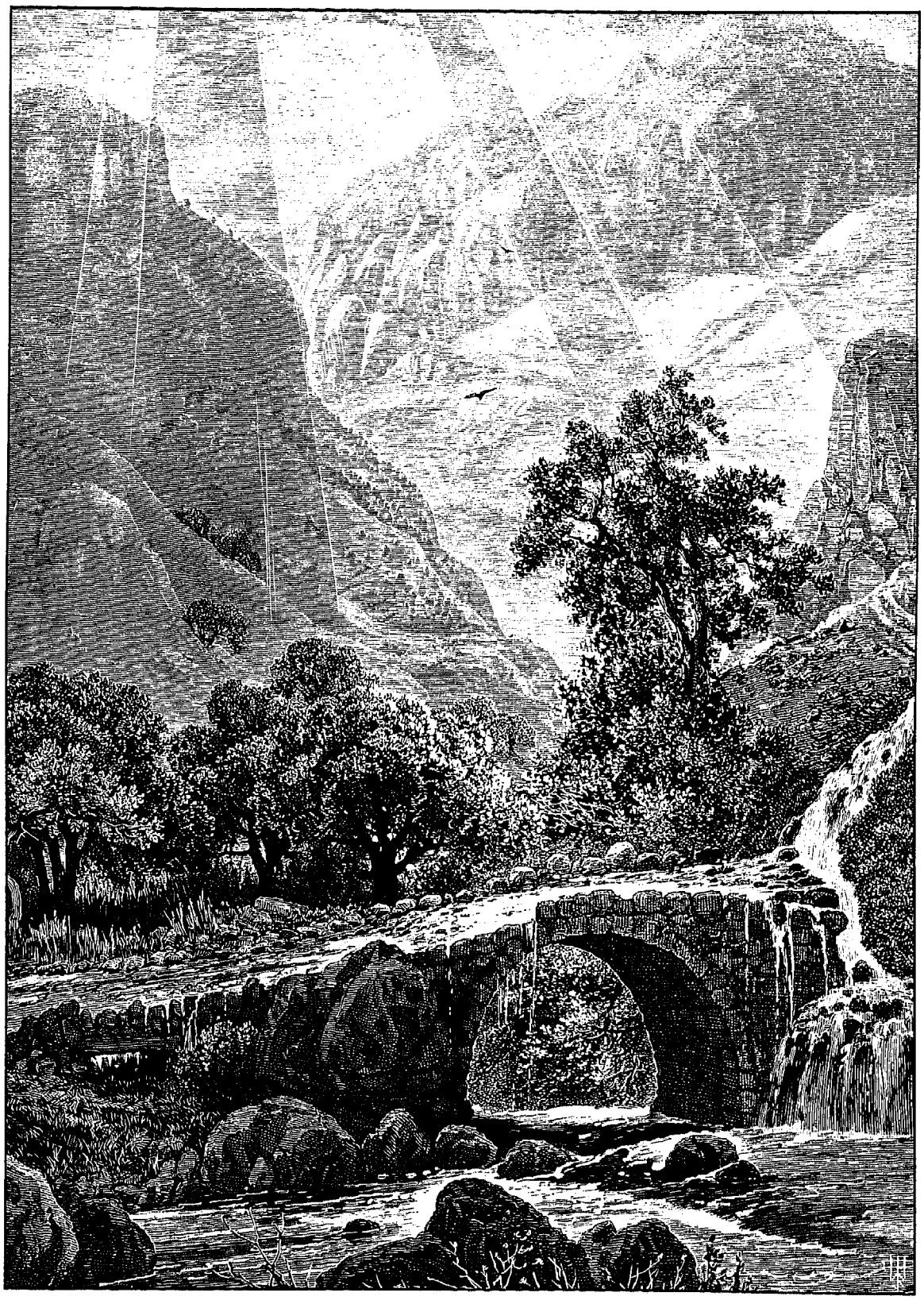

نبع أفقا على الجسر القديم

صخري متدرج، نحو الجنوب الشرقي، الى المنيطرة، البلدة المارونية التي تواجه النبع من جهة الجنوب. يخرج نبع أفقا التاريخي من المغارة وتحديداً من الطبقة الصخرية تحتها، والذي يتدرج نزولاً كما السلم نحو وادي نهر أدونيس العميق (نهر ابراهيم) ويرتفع الشير او الحائط الصخري فوق النبع من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ قدم ويتفجر الماء من فجوات او شقوق نشأت من انحراف الحائط الصخري من الشمال الى الجنوب، باتجاه الغرب ثم تندفع نزولاً الى بركة في الصخور على عمق حوالى ٥٠ قدماً ونعبر البركة فوق جسر يقودنا الى آثار هيكل قديم مساحته ١٠٠ × ٥٠ قدماً وهو على الأرجح معبد فينوس القديم الذي أمر الامبرطور قسطنطين بهدمه في القرن الرابع ولا تزال ساقية ماء تجري من تحت ركام المعبد وتظهر في اكثر من زاوية تحت ركام الهيكل مخارج عديدة للمياه. تشكل مياه النبع المصدر الرئيسي لنهر ابراهيم، او نهر ادونيس كما كان يعرف قديماً والمكان هذا هو مسرح أحداث أسطورة أدونيس وعشتروت القديمة وحيث كانت صبايا فينيقيات يبكينّ ادونيس في الاحتفالات السنوية. كانت اناشيد الصبايا ترتفع في ذلك الوادي «تعالوا نندب أدونيس، أدونيس الجميل مات، أدونيس مات، إبكِ ايتها الآلهة» ادونيس هو آدون Adon او الإله البعل او الشمس وهو عين معنى مفردة تموّز عينه، الاسم العربي لشهر يوليو شهر احتفالات أدونيس. ولا يزال هناك من يعتقد، الى اليوم، أن لون شقائق النعمان في لبنان هو من لون دم أدونيس.

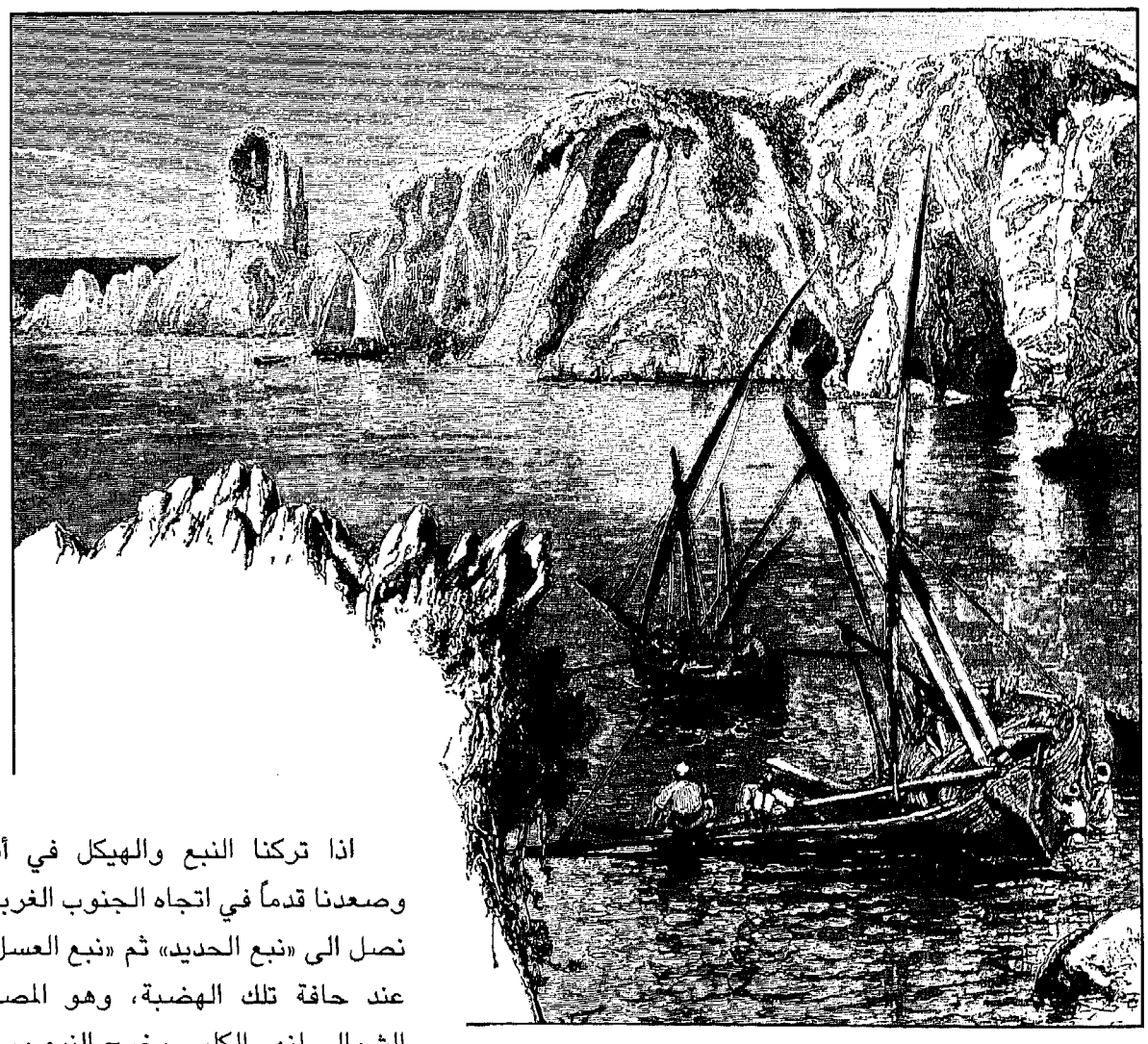

الساحل اللبناني قرب مصب نهر ادونيس
وفي الشتاء تجرف التربة الملّونة بلون الحديد الى الماء، وتذهب مياه النهر الملّونة الى مسافة كبيرة داخل البحر الازرق. وهو ما يعطي الانطباع ان النهر قد اصطبغ بدم ادونيس، في ذكرى موته في كل عام.

اذا تركنا النبع والهيكل في أفقا وصعدنا قدماً في اتجاه الجنوب الغربي، نصل الى «نبع الحديد» ثم «نبع العسل»، عند حافة تلك الهضبة، وهو المصدر الشمالي لنهر الكلب. يخرج النبع وسط كتل صخرية ضخمة، على حافة المنحدر الشمالي الغربي لجبل صنين، ثم تنساب مياهه الصافيه غرباً بين ضفتين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صخريتين خاليتين من الشجر. وفي الشتاء تغمر المجرى مناسف ثلجية عالية ويصبح الوصول الى النبع شبه مستحيل. وعلى مسافة نصف ساعة من نبع العسل يخرج نبع آخر هو «نبع اللبن»، وكانت العرب تقول «نبعا اللبن والعسل يذهبان الى مصب الكلب». على مسيرة نصف ساعة من نبع العسل، باتجاه الغرب، نصل الى «جسر الحجر» أكبر جسر طبيعي في سوريا يتدفق تحته نبع اللبن وقد يعبر المرء ذلك الجسر من دون ان ينتبه الى كونه جسراً، اذ أن سطحه هو في نفس مستوى الحقول المجاورة على طرفيه. ومن على الجسر تكفي نظرة واحدة لتكشف لنا عمق المنخفض الذي يشكل الفرع الجنوبي لنهر الكلب، ويحمل الماء من نبع اللبن الذي يقع على مسافة ١٥ دقيقة عند أسفل الجبل.

ونستدير حول الجسر نهبط الوادي من الجهة الجنوبية الغربية فيبدو لنا الجسر كاملاً مهيباً. يبدو الجسر كما لو كان قنطرة أو قوساً عالياً في نصف دائرة على امتداد ١٢٥ قدماً وارتفاع ٨٠ قدماً تقريباً. أما سماكة الصخر الذي يشكل القوس فهي ٣٠ قدماً، وعرض الطريق فوق الجسر هي في حدود ١٠٠ قدم. والقنطرة المستديرة عند الجانب الشمالي مكسورة قليلاً، أما المنخفض الذي ينحدر باتجاه وادي فاريا فتتناثر فيه اشكال مختلفة من الحجارة تعكس تعاقب الأزمنة على هذه المنطقة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

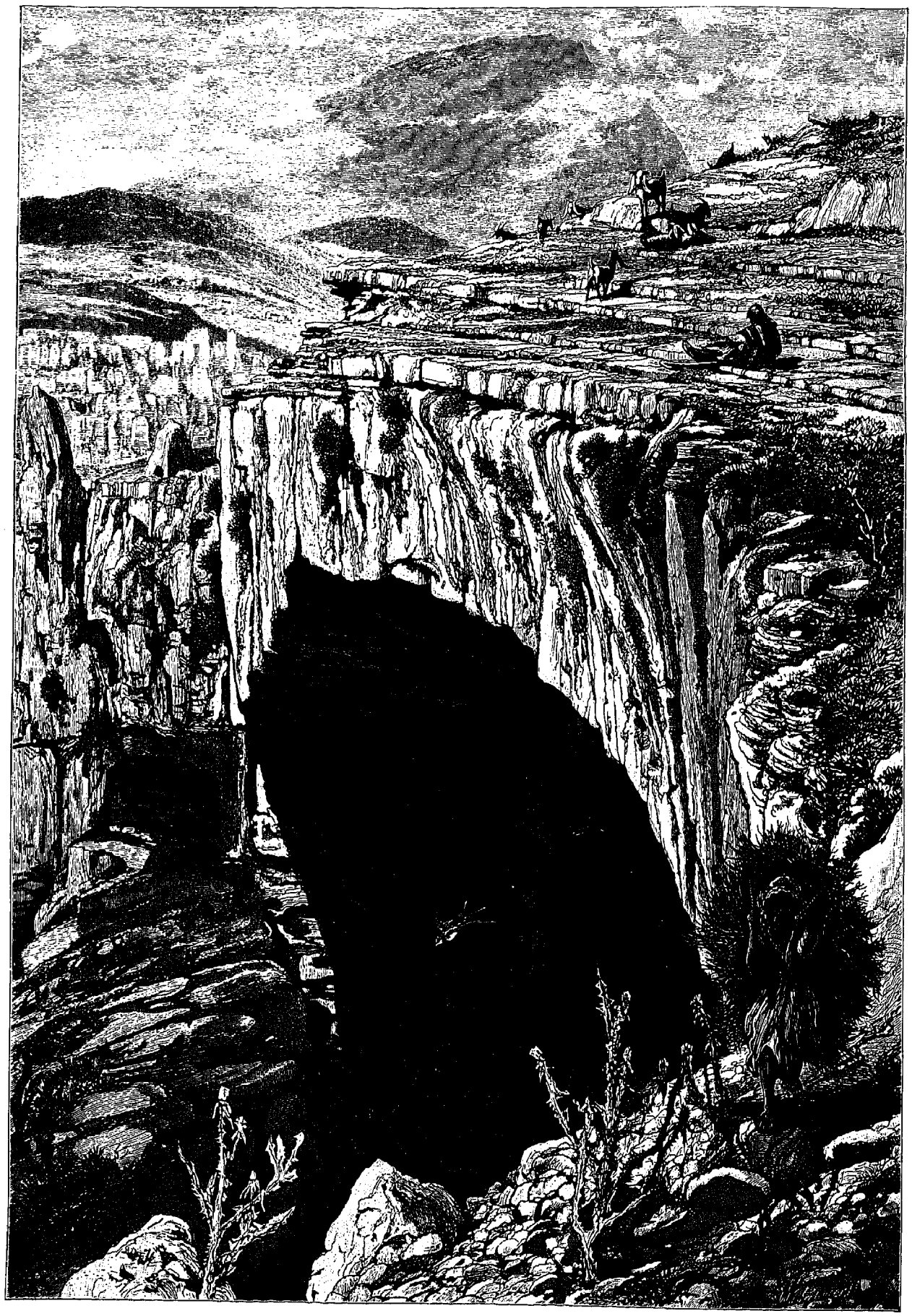

الجسر الطبيعي لبنان
ويدعى بالعربية «جسر الحجر»، وهو يمتد فوق الانخساف
الذي ينبع منه نبع اللبن، أحد روافد نهر الكلب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتركنا الجسر الحجري نزولاً مع مجرى نبع اللبن المتعرج حتى أعالي كسروان ، ثم اسرعنا الخطى نحو دير عجلتون الكبير الذي يقوم منفرداً على تلة صخرية مكسوة. تقف التلة الصخرية عامودياً، وقد عرّتها الامطار

صخور كلسية، عجلتون لبنان
تقدم في المنطقة، والمعروفة بكسروان، جبال وعرة تخفي في الكثير من جنباتها مغاور
كما تعلو بعضها أشكال معمارية عجيبة ويبدو دير عجلتون الى اليسار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعواصف من القشرة السطحية الناعمة، فلم يبق غير أضلع صخرية يرتفع الواحد منها الى ٤٠ او ٥٠ قدماً. وتظهر هذه الأضلع في أشكال عجيبة تشبه الاعمدة، او الحجارة المشذبة والمنازل، او الأبراج المستديرة والمربعة، والقلاع والحصون؛ ويشبه بعضها القباب والمسلات، وتمر الطريق بينها ضيقة ومتعرجة. اما القسم الغربي من البلدة فبخلاف ذلك تماماً منطقة ملائمة للسكن، وكل حبة تراب فيها تقوم فوقها، ربما، شجرة توت، النتاج الرئيسي لهذه المنطقة في لبنان. والمنطقة هذه هي كسروان، او «المنطقة المنكسرة» broken Region، وهي عبارة عن هضاب جبلية متقاطعة ومتداخلة شكلت على الدوام حصن الموارنة الحصين وجبلهم المقدس. وتملأ الاديرة والكنائس كل زاوية في كسروان. ومعظم الاراضي الصالحة للزراعة يملكها الرهبان بينما معظم السكان مرابعون عندهم. إلا انهم كذلك حرفيون مهرة؛ ويتبدى ذلك في قطعهم الصخور، يعالجونها بكفاءة عالية ثم يبنون بها حيطاناً حجرية لا آخر لها تدعم وتحفظ ما تبقى من تربة جوانب تلك الجبال فينتزعون من تلك الأرض الوعرة ما يكفي حياتهم واحتياجاتهم. لقد دفعت القلاقل وفقدان الأمن في السهول الواسعة شرقي لبنان، وفي شماله الشرقي، الناس الى طلب الأمن في هذه الجبال المنعزلة. كذلك الحروب الاهلية في لبنان حيث هزم الدروز،جنوب طريق دمشق، الموارنة في كل مكان، فجعلت هذه الجبال ملجأ لا غنى عنه. والموارنة شعب لامع يستطيعون أن يتحولوا الى قوة فاعلة في الشرق شرط أن يتحرروا من الطغيان الكنسي للمطارنة والرهبان وأن تستخدم الأملاك الشاسعة للرهبان في خدمة ترقيهم العلمي والتربوي. وهو تماماً ما يحدث اليوم تدريجاً، حيث يشقون طريقهم صعداً ويتسنمون على نحو متزايد مواقع نافذة في سوريا ومصر.

شق نبع اللبن
فوق جسر الحجر تماماً

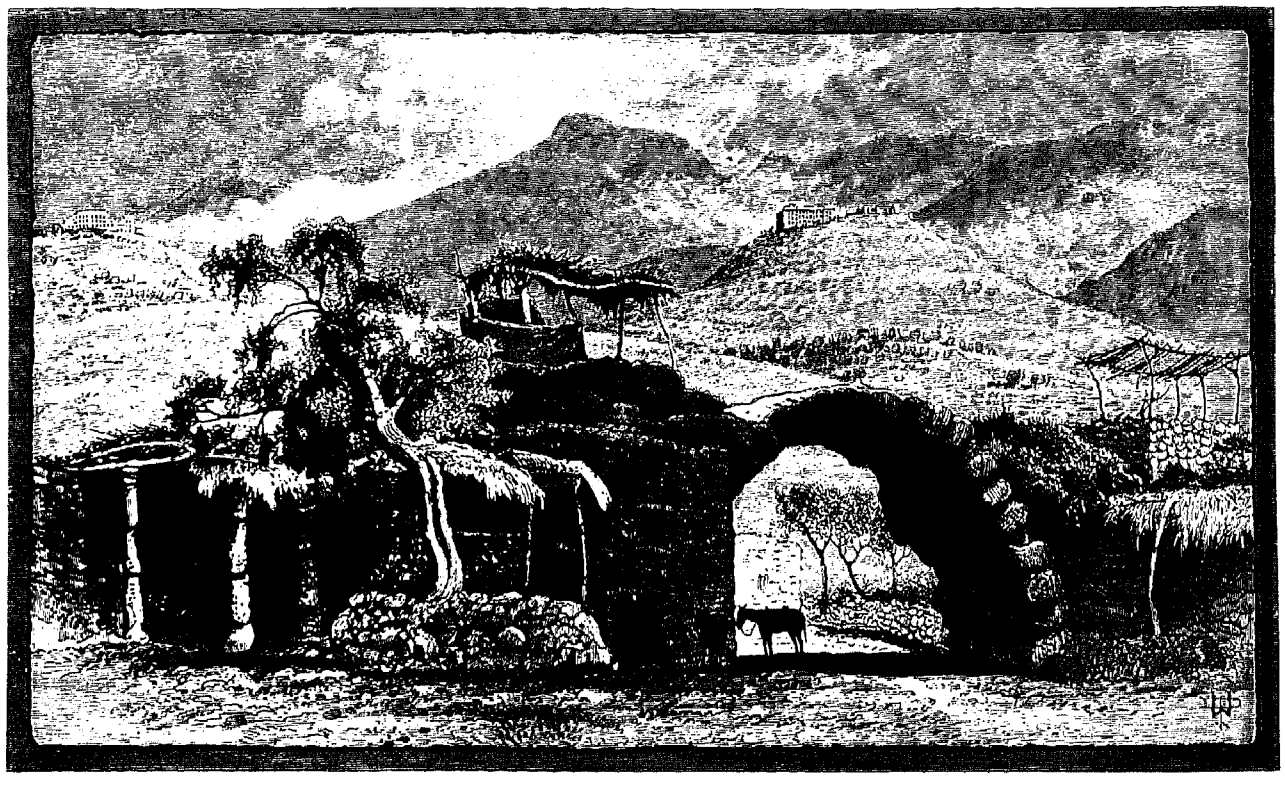

جسر روماني قرب جونية
يعبر جدول ماء شتوي يدعى نهر المعاملتين
وينبع من التلال المطلة على خليج جونية الجميل،
ويحاذي الجسر خان سوري

ومن عجلتون نزولاً صوب البحر، عبر طريق صخري، على يسارنا وادي نهر الكلب العميق وأما منا على نحو عشرين ميلاً الى الغرب المنظر الخلاب لرأس بيروت الداخل في البحر. وفي محيط نهر الكلب على بعد ثلاثة أميال من المصب، شمالاً هناك ثلاث مغاور تخرج المياه من اثنتين منها، ومنهما تأتي في الصيف معظم امدادات المياه بعدما تحوّل ينابيع نبع العسل لأغراض الري. وكان دكتور طومسون مؤلف «أرض الكتاب المقدس» هو أول من اشار الى وجود المغاور الثلاث، الا أن الكشف الكامل عليها لم يجر إلا في ايلول سنة ١٨٧٣ على يدي ي .ت. ماكسويل يعاونه هـ. ج. هاكسلي، دكتور بلّس (رئيس كلية المرسلين البروتستانت في بيروت) ودكتور بريج ستوك Dr. Brig stocke. دخل هؤلاء حاملين قارباً صغيراً ورمتاً من جلد الماعز، ومعهم تجهيزات اضاءة كافية وشريط ماغنيزيوم؛ وبعدما تجاوزوا المدخل الوعر بلغوا مجرى مائياً مسطحاً فامكنهم الدخول الى عمق المغارة الرئيسية مستخدمين قاربهم والرمت، الى مسافة ٦٠٠ قدم فوق مياه البحيرة الداخلية الساكنة. وعند هذا الحد كان هناك صخر كبير بعلو ١٥ قدماً يسدّ المجرى. اضطر الفريق الى ترك قاربهم حيث هو ثم تسلقوا الصخرة ودلفوا منها الى مسافة ٧٠٠ قدم اخرى بين التضاريس الجانبية والنتوءات والقناطر الصخرية، ثم ليصعقوا بالمشهد الذي رأوه حينما أضيء سلك الماغنيزيوم ونترك الكلام لواحد منهم فيقول:« كانت رواسب تشبه الثريات المعلقة تتدلى من السقف ذي القناطر، او تخرج من الحيطان العامودية كما المنحوتات في ألف شكل، وكانت الصخور والنتؤات والاشكال يتداخل بعضها ببعض كأنما يد فنان ماهر قد حفرتها فابدعت الصنع، بينما تخرج من الأرض بين الحين والحين بقايا ورواسب صخرية وكلسية، وعلى نحو مخيف، ولتتصل أحياناً بالثريات المتدلية من السقف».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

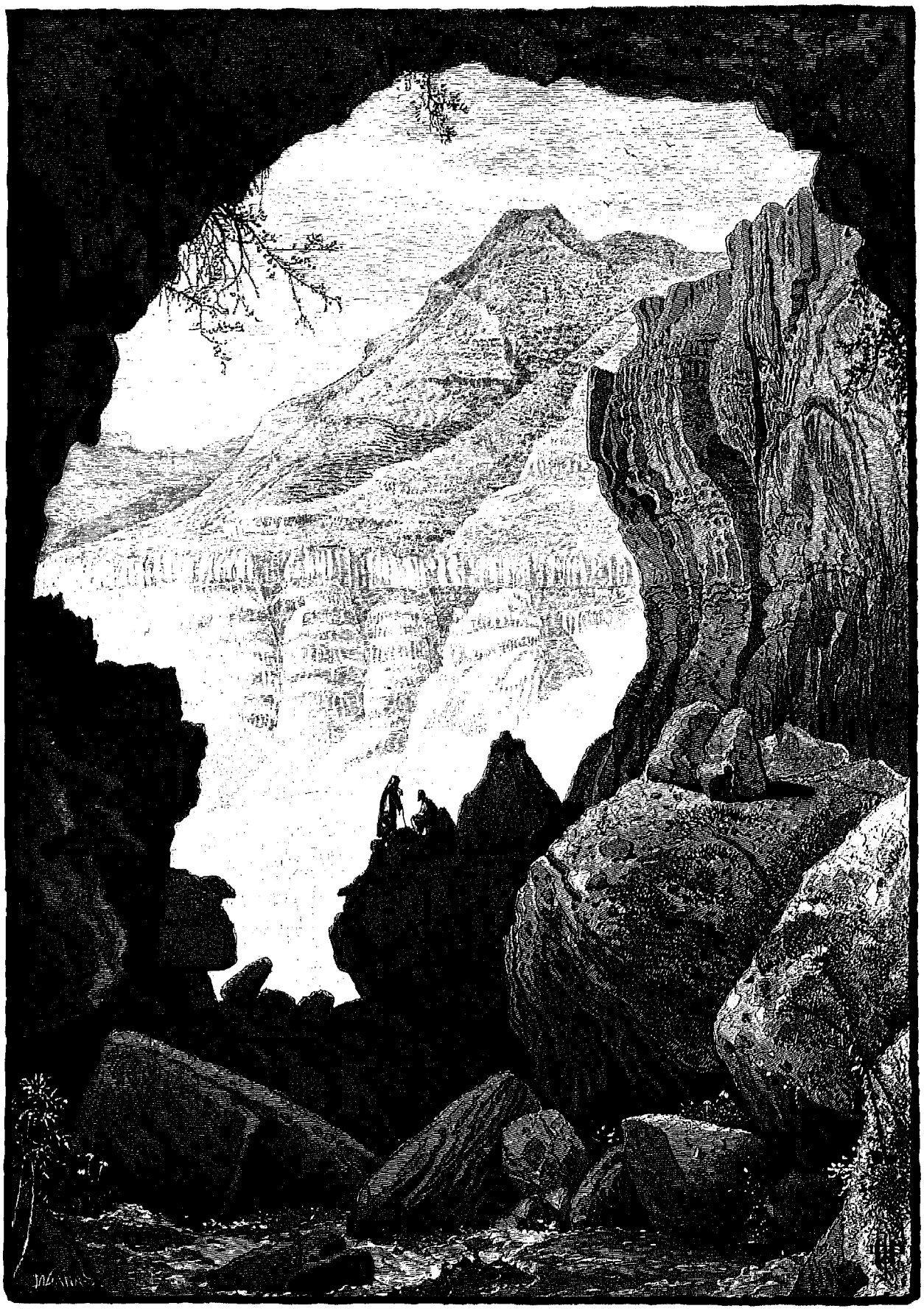

تحت الجسر الطبيعي لبنان
ينحدر المجرى، بعدما يمرّ تحت الجسر، نزولاً على
جانب الجبل في واد عظيم قبل يتكسر زبداً على الصخر

لوحات نهر الكلب وجدران صخرية.
ترتفع عند الرأس الصخري الذاهب بعيداً في البحر، ويصل علوها الى مئة قدم او اكثر

نهر الكلب
وجسر قديم يتصل بطريق الشاطئ المحفورة في الصخر. ويمكن عبور النهر عند هذه النقطة صيفاً.

غادرنا المغارة وهبطنا مجرى النهر بمحاذاة قناة الجر والسياج اللذين انشأتهما شركة «أعمال المياه اللندنية» ثم بمحاذاة القناة الرومانية القديمة على الضفة الشمالية، حيث كان المهندس المعماري الهولندي مستر لويتد Loyted قد عثر قبل وقت قصير على اكتشاف أثري هائل وذلك بمساعدة د. هارتمان من المستشارية الالمانية. ففي خط غير بعيد عن الجسر الروماني القديم، وجد لويتد وهارتمان سلسلة كتابات بابلية محفورة على صخر طوله ٨,٤٠ م وارتفاعه ١٢ متراً، تمر فوقه القناة الحديثة. ولم تجر الى الآن ترجمة كاملة لتلك الكتابات، إلا أن المؤكد هو ان واحداً منها يعود الى عهد نبوخذ نصّر، حيث يتردد اسمه أكثر من مرة في تلك اللوحة. واذا عبرت الجسر القديم من النقطة تلك فستقع عيناك على كتابة عربية تكاد تمّحي على قاعدة صخر طوله على الضفة الجنوبية، يفترض أنها للسلطان سليم وتعود لسنة ١٥١٧م. والى مسافة ابعد قليلاً ناحية البحر، الى اليسار من الطريق المعبّد محفورة لاتينية تعود لسنة ١٧٣م. حول قناة لوسيس حيث نهر الكلب فيها هو نهر الذئب. وهناك كتابة لا تينية أخرى أقصر قليلاً لناحية الغرب لجهة البحر تعود لأنطونيوس. وعلى جانب الطريق الذي يمرّ بالرأس الصخري جنوب نهر الكلب يمكن مشاهدة مجموعة لوحات

أشورية ومصرية، ثلاث لوحات مصرية وست آشورية يرتبها مستري. ت. شاد بوسكوين كما يلي:

النوع	الرأس	الارتفاع	العرض	العمق	التاريخ
١ـ مصرية	مربع	٧ قدم و٦ انش	٨,٣	٦	رمسيس الثاني مهداة الى Phtha آشور
٢ـ اشورية	مربع	٧,٦	٥,٢	٤,٥	ريسيليم ١١٤٠ ق.م.
٣ـ اشورية	مربع	١,٥	٤,٢	٥	بتجلآت بيلاسر ١١٤٠ ق.م
٤ـ اشورية	مستدير	١,٦	١/٢,٢ ٦	٤ ١/٢	أشورنا سيربار ٨٨٥ ق.م.
٥ـ اشورية	مستدير	٤,٦		٥	شلما نصر ٨٦٠ ق.م.
٦ـ مصرية	مربع	٦,٧	٩ ١/٢,٢	٥ ١/٢	رمسيس الثاني
٧ـ اشورية	مستدير	٣,٧	٨,٣	٥ ١/٢	سنحريب ٧٠٢ ق.م
٨ـ مصرية	مربع	٤,٧	٨ ١/٢,٣	٥ ١/٢	رمسيس الثاني مهداة الى آمون طيبا
٩ـ اشورية	مستدير	٦	٨,٣	٦	اسرحادون ٦٨١ـ ٦٧١ ق.م.
			١,٣		

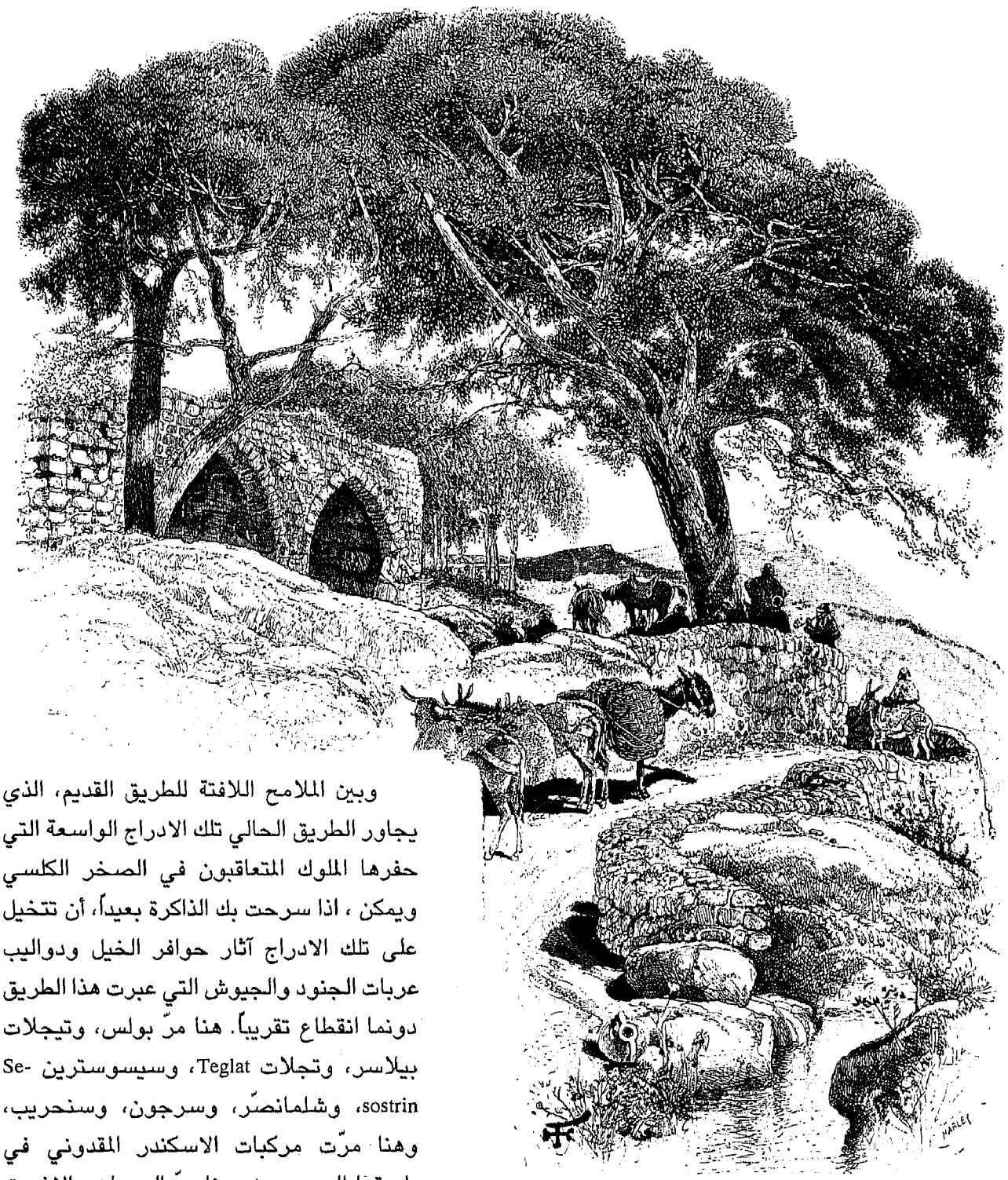

نزل ومقهى لبناني،
على ساقية جبلية، تظلله اشجار غضة. موقع النزل دائم هو مكان استراحة وتخييم للمسافرين، لأنه غالباً ما يكون قرب سبيل مياه عذبة .

وبين الملامح اللافتة للطريق القديم، الذي يجاور الطريق الحالي تلك الادراج الواسعة التي حفرها الملوك المتعاقبون في الصخر الكلسي ويمكن ، اذا سرحت بك الذاكرة بعيداً، أن تتخيل على تلك الادراج آثار حوافر الخيل ودواليب عربات الجنود والجيوش التي عبرت هذا الطريق دونما انقطاع تقريباً. هنا مرّ بولس، وتيجلات بيلاسر، وتجلات Teglat، وسيسوسترين Se-sostrin، وشلمانصّر، وسرجون، وسنحريب، وهنا مرّت مركبات الاسكندر المقدوني في طريقها الى مصر؛ وهنا مرّ الرومان والاغريق المتأخرون والعرب والأتراك والصليبيون؛ وهنا مرّ كذلك التجار والرحالة.

قناة جر مياه حديثة البناء على نهر الكلب
اكتشف بجوارها حديثاً ألواح اشوريه
تعود الى نبوخذ نصر

والى الجنوب من نهر أدونيس، عند الشاطئ، تعبر جسراً معبداً عالياً، وتمر بعدة خانات وقباب أضرحة تقوم الى اليمين من الطريق، ثم نزولاً حيث تمر بنتؤات صخرية تدخل في البحر قبل خليج جونية. ونمر بعدها في طريق روماني قديم على حافة جرفٍ عالٍ فوق الماء، يفضي الى شاطئ رملي يحاذي نهر المعاملتين. وتقوم فوق مجرى السيل هذا قنطرة رومانية لا تزال في حالة جيدة. هي تدعى المعاملتين، أي المقاطعتين، باعتبارها الحدود في ما مضى، بين ولاية طرابلس وولاية صيدا وقرب القنطرة خان سوري يقدم نزلاً مريحاً للعابرين واستراحة لبعيرهم .

عبرنا الشاطئ الرملي نحو نهر بيروت، في مايشبه العدو، تشدنا اللوحات الطبيعية الفاتنة. فمنظر رأس بيروت تكلله البيوت ذات الحجر الرملي البنّي، الى القصور والكنائس والجوامع والكليات والمدارس، تنتشر من حافة الماء الى أطراف الجبل تظللها غابات الصنوبر على الوهاد الشرقية للمدينة، منظر لن تجد ما يدانية الا في خليج نابولي. وسان جورج او مار جرجس، كما يدعوه نصارى الشرق هو

القديس المفضل في الروزنامة السورية. والمسلمون يدعونه الخضر. ولإسم الخضر جامع او مزار قرب الجسر ذي القناطر السبع على نهر بيروت، حيث يعتقد أنه دفن، وأبعد قليلاً صوب المدينة برج مهدم الى الشمال من الطريق يقال أنه المكان الذي قتل فيه مار جريس التنين وغسل يديه من دمه الفاسد.

وندخل بيروت، مركز فينيقيا الحديثة، والمدينة الاكثر جمالاً والاكثر ثقافة فيها الآن. اما موقعها الجغرافي، على المنحدر الشمالي للرأس وعلى امتداد ثلاثة اميال من نهر بيروت الى رأس بيروت ففيه كل ما يمكن ان تتمناه. فتقلبات المناخ تجري مع الشهور المتعاقبة، تدريجية هينة، حيث الخريف يسلم الشتاء دون ان تكاد تشعر بذلك، والشتاء نفسه

حمّام ومقهى ، بيروت
اعتني في السنوات الاخيرة كثيراً بالصيد على الشاطئ. ويمكن في ليالي الصيف مشاهدة الصيادين على الضخور عند الشاطئ مع مشاعل ومصابيح يقال انها تجذب أنواعاً معينة من السمك.

ربيع، والربيع يمهد للصيف حيث لا ترتفع الحرارة اكثر من نصف درجة في النهار الواحد. هنا باختصار كمال المناخ فلا تعجب بالتالي ان يدعوها الشاعر الاغريقي «حاضرة الحياة الهادئة».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبيروت هي «بيريتس» Berutus عند الاقدمين، ويحتمل ان يكون الفينيقيون هم الذين أنشأوها. ومن المتفق عليه، عموماً ان اسمها مشتق من بئر او آبار كانت تكثر في تلك البقعه لكن رينان Renan ينفرد في كتابه «رسالة فينيقيا» بتفسير خاص، فيذهب الى أن بيريتس او بيروث هي من بينتو Pinto أو الصنوبر. لكن ما من أحد يجاري رينان في رأيه. فالنشيد الذي يرجع له رنيان (Canti ; 17) وفيه كلمة Chalde بيروث تترجم عند ڤانديل بالسرو. وروبنيسون يعني ببيروث السرو والصنوبر معاً وبيروت عرفت دائماً بابارها وصنوبرها في الأزمنة القديمة، في آن معاً. واذا كان الصنوبر هو الأكثر إلفاتاً بالتاكيد. الا أن وزن الآبار في الازمنة القديمة أكثر وضوحاً وهو المرجّح. ويذكر Starbo المدينة لأول مرة سنة ١٤٠ق. م. حينما قام تريڤون بتدميرها خلال حكم ديميتريس نيكاتار. لكن الرومان اعادوا بناءها واستوطنها متطوعو الفيلق الخامس المقدوني والفيلق الثامن الاغسطيني. وهنا حوكم ولدا هيرودس الكبير غيابياً وحكما بالموت من قبل والدهما القاسي وغير العادي والابن الاكبر أغريبا Agriba أحب المدينة فزينها بالمسارح والملاعب الرائعة ، الى جانب الشوارع والحدائق وملاها بالالعاب والاحتفالات الضخمة، ومن ضمنها عروض المصارعة وفنون القتال الرومانية. وهنا ايضاً ، وبعد تدميره اوروشليم، احتفل تيتوس Titus بعيد ميلاد والده ڤيسباسيان بعروض مشابهة حيث كان يضحي بالكثير من الأسرى اليهود.

وفي بيروت في منتصف القرن الثالث، أنشئت مدرسة القانون الروماني. وكان الطلاب يأتون المدرسة تلك من بلدان كثيرة، ومن أشهرهم غريغوريوس وتوماتيرجوس وآبيون Apion الشهير. وعلّم ابو لونير «المبادىء» هنا، وذلك في القرن الرابع. وبعد وفاة جوليان الابوستاتي Julian of Apostate طلب الامبراطور جوڤيان اعادة بناء كنيسة بيروت التي دمرها الماجنوس Magnus، على نفقته. كانت الفترة الممتدة بين ٢٥٠ ـ ٥٥٠ م، هي العهد الذهبي لبيروت فبلغت ثقافتها وآدابها الذروة في عهد الامبرطور جوستنيان، الذي خصّ بيروت برعاية خاصة. لكن التاسع من تموز لسنة ٥٥١ ميلادية كان يحمل أمراً آخر رهيباً لبيروت، فقد دمر زلزال مروع المدينة بكاملها، فتفرق من نجا من سكانها ولجأ قسم كبير من مثقفيها وعلمائها الى صيدون. وفي القرن السابع اي بعد ذلك بحوالى قرنين من الزمن، أمكن لخالد، «سيف محمد»، ان يدخل المدينة، فسقطت بيروت في أيدي المسلمين بسرعة وبكاملها.

وفي العام ١١١٠ احتل الصليبيون بقيادة بلدوين الاول، بيروت وظلت في ايديهم فترة طويلة مركزاً دينياً وعسكرياً مستفيدين من موارنة لبنان كحاجز حليف في وجه المسلمين في الشرق احتل صلاح الدين المدينة لفترة قصيرة، الا ان الصليبين لم يخرجوا من المدينة فعلاً الا بعد معركة حطين سنة، ١٩٨٧. وساد بيروت من ذلك التاريخ والى عهد الامير الدرزي الشهير، فخر الدين، قدر كبير من الفوضى والغموض. اعاد فخر الدين بناء المدينة وأحاطها بأحراج الصنوبر. وفي سنة ١٨٤٠ ضرب الاسطول الانجليزي المدينة لإخراج جيش ابراهيم باشا المصري. وفي آب ١٨٦٠ احتلّ ستة الآف جندي فرنسي المدينة، بعدما أرسلهم نابليون الثالث للمساهمة في وقف الحرب الاهلية والمجازر التي اندلعت في كل مكان. آثار بيروت الظاهرة محدودة تقريباً والسمة الغالبة عليها الأعمدة الغرانيتية او البروڤيرية، تتناثر في كل مكان، والقلعة القديمة على مدخل المرفأ. تبرز في بيروت الحجارة القديمة والتواويس وبقايا الأعمدة على أعماق بسيطة، في اساسات المنازل والابنية مثلاً، كما تجد في حالة سليمة أعمدة ثلاثة ضخمة قرب الكنيسة الروسية، وأرضيات موزاييك رومانية تكتشف هنا وهناك، كذلك هناك كتابة يونانية ما زالت في حالة جيدة فوق باب الديركي Dirkeh ،وبقايا طريق روماني على بعد دقائق من الجسر الحديث فوق نهر بيروت الذي اقامه رستم باشا ويعثر الى ذلك باستمرار، على خزفيات وفخاريات وقطع زجاجية وحلي قديمة.

وكانت بيروت، وبفعل هذا التاريخ الغني زاخرة بالقصور والقلاع والاسوار والابراج. أربعة منها كانت ولا تزال حتى عهد قريب في حالة سليمة، أبرزها اطلاقاً برج عسّاف يقوم عند الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة القديمة، الا انه بيع اخيراً الى متعهد محلي هدمه سعياً وراء بيع حجارته. والمستشفى العسكري يقوم على موقع برج مستدير قديم أما البرجان الآخران فكانا يحرسان مدخل المرفأ. ويبدو ان الصليبيين هم الذين بنوا هذه الابراج على أنقاض بيروت القديمة وقواعد هذه القلاع انما تقوم على أعمدة بيروت القديمة وحجارتها. الا أن ما يبهج زائر بيروت هو بيروت الحديثة النامية باطراد، فقد عادت مدينة جوستنيان المفضلة القلب الثقافي والادبي لسوريا ومفخرتها في آن. ففيها تنهض اليوم المدارس العالية والكليات وتتأسس المستشفيات والكنائس والجرائد والمطابع.

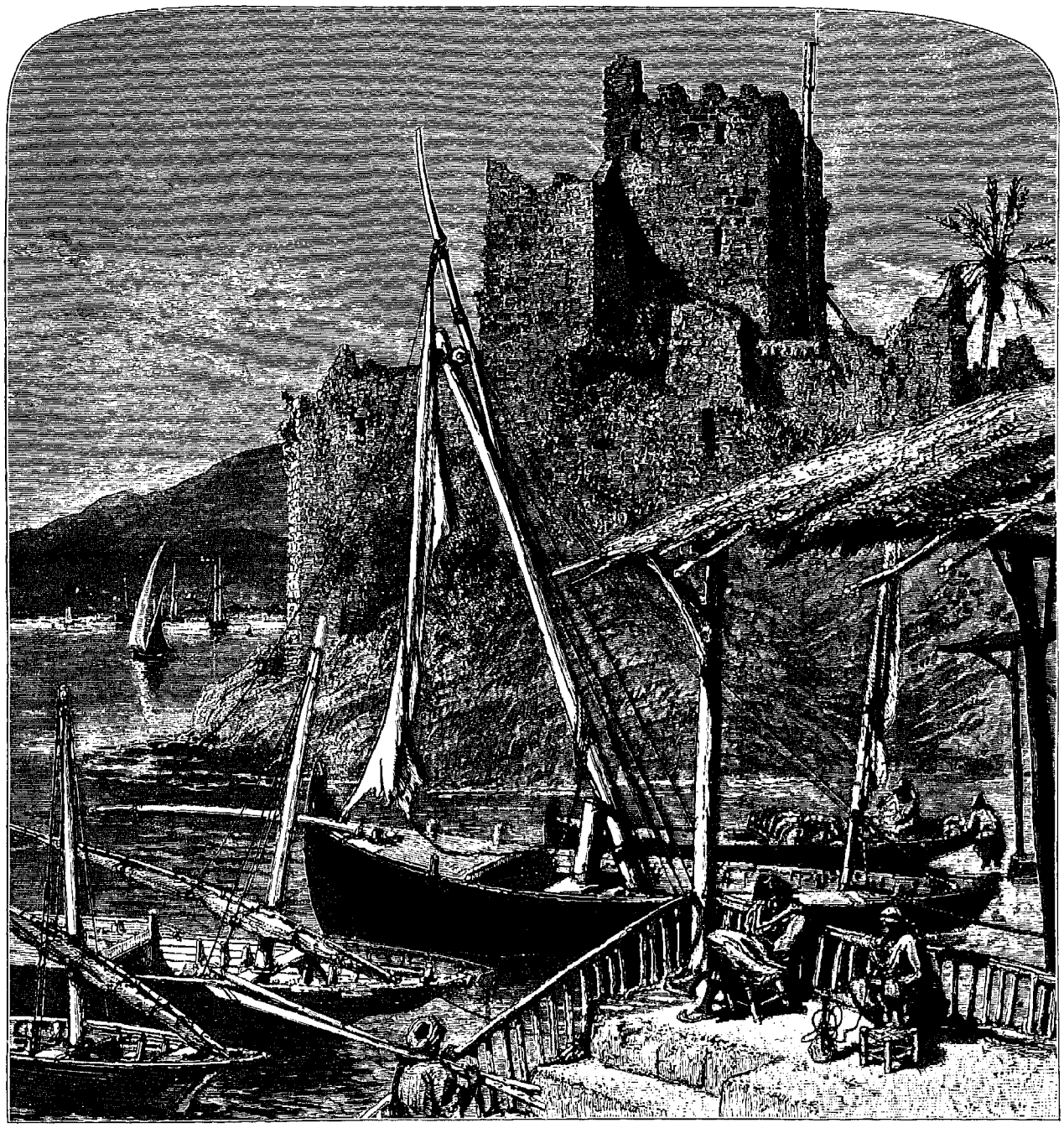

قلعة بيروت
بناها الصليبيون، وجزئياً من حجارة ومواد كانت في انشاءات
أقدم عهداً ، بدليل الاعمدة الغرانيتية التي وضعت في الاجزاء
السفلية من الأسوار

ففي الشأن التربوي سبق المرسلون الاميركيون سنة ١٨٢٠ سائر الارساليات والبعثات فامكن لهم بذلك تدريس الآف الشبان وهم يديرون الآن ١٠٤ مدارس فيها اكثر من ٤٠٠٠ تلميذ، ولديهم مؤسسة طبية وثلاث مدارس للبنات و ٨ مدارس للتعليم العالي (ثانوية) وهكذا ارتفع عدد سكان بيروت من بلدة لا يزيد تعداد سكانها عن ٨٠٠٠ الى مدينة يقطنها ٨٠٠٠٠ ساكن. وممرات الصبير القديمة غدت اليوم شوارع مرصوفة تزينها منازل حسنة العمارة مفروشة بالاثاث المحلي الصنع ينافس أحلى ما في أوروبا. وتبدو المدينة في حمى نهوض وتنافس تربويين بل أن الطوائف الاكثر تحفظاً تجاه هذا التحول تبدو واقعة الآن تحت تأثير شبان وبنات متعلمين. ويتسابق اليوم المحمديون والارثوذكس والموارنة الكاثوليك واليهود في تأسيس مدارسهم، كذلك افتتحت جمعيات كثيرة، مثل الجمعية السورية